عائشة عدنان المحمود

وطن مزور

(يوميات البنُ والحِناء)

رواية

دار سؤال

عائشة عدنان المحمود

وطنٌ مزوَّر

(يوميات البُن والحِناء)

رواية

الطبعة الأولى، 2018
عدد الصفحات: 192
القياس: 14.5 × 21.5

جميع حقوق النشر والترجمة محفوظة

دار سؤال للنشر
لبنان - بيروت
الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس
ص.ب: 58-360-11
هاتف: 740437 1 00961

www.darsoual.com

@darsouall2014

dar_souaal@outlook.com

Dar Soual

ISBN: 978-614-8020-58-2

إن دار سؤال للنشر غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء مؤلّفه، ولا تعبّر بالضرورة عن آراء الدار.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

«الحرية هي أول خمس دقائق وُلدت فيها
أبكي عارياً بلا اسم بلا خطيئة بلا توجهات
وبلا حقد بشري»

مكسيم غوركي

إهداء

إلى الوطن والحُب. . .
إلى تلك البقعة القصية النقية
التي تنبع منها أجمل الأساطير
وإليها يعود أصل الحكاية ومآلات الوجع. . .

محاولات تبرير

هي حكاية مجنونة، تنتمي إلى شخص لا وجود له سوى في ذاكرتي الخائنة، إنها قصة مجدولةٌ صوب أفق يستفزُّ البوح ويوغل في التدفق، حول شخصٍ غير حقيقي في وطن يُناور الحقيقة، وطنٍ يملك نُسخاً مُتعددة، كما يمتلك حق تواجده المُنفرد، إنها قصة تتكرر، في أوطان تلاصقت واختفت معالمها حتى باتت تضيق وتخنقُ ناسها، مُدنٌ مُتخيلة لا وجود لها.

لكل أولئك الذين بمحض المُصادفة أفقدتهم الأوراق أولويات الحياة المُستحقة، ولكل أولئك المُنتمين إلى أوطان تُنكرهم ومع ذلك يزدادون لها قُرباً وحباً كُلّ يوم، أقول:

أستمحيكم عذراً إن خذَلْتكم أحرفي في مواطن كانت تستدعي منها أن تنتفض لتحاذي هامتكم علواً وبهاء، عذراً منكم جميعاً مُقدماً، لِما حاولت أن أنقشه بِحَرفِه فانهارت مني التفاصيل على نحو مُبهم فمثلكم لا تُسعفنا الأبجدية لأن نُنْصفه.

الفصل الأول

كان ما كان في حديث الزمان

قاعاتٌ باردة

بواكير ديسمبر 2016

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

هو يومٌ فارق بالتأكيد، يومٌ مُختلف أدرك يقيناً أنه سيعيد تشكيل زمني القادم، فالمسارات المُلتبسة للحياة والتي أخوضها اليوم بمحض إرادتي تدفعُنا أحياناً لاتخاذ خيارات تُكلفنا غالياً، خيارات ندفعُ كُلفتها على امتداد أعوامنا ويتسرب ثمنها الباهظ من عواطفنا ومن ذاكرتنا، وهي تشتبك مع الأحداث التي نُعاصرها والقصص التي نحياها كما هي القرارات التي نتخذها مُجبرين ونحن نعيش في حالة من استلاب الإرادة، وأجدني اليوم أتخذ أحد تلك القرارات البالغة الصعوبة والتأثير.

عليَّ أولاً أن أعرّفكم بنفسي. اسمي عمر، عمر سالم العاطف، أتممت منذ عدة أيام عامي الثاني والأربعين أنا أصغر أبناء سالم سيف العاطف، رابعهم على وجه التحديد بعد قيس وسناء وجواهر، لكن يصعب عليَّ أن أقول لكم من أين جئت أو من أين جئنا، فتلك الحكاية عليكم اكتشافها بأنفسكم، وفي هذا الأمر بحث مضن قاس أحذركم من مطبات الوقوع فيه منذ الآن.

كما عليَّ أن أقول لكم إنه ما من رابط يربط بين اسمي هذا وبين أي عمر كنتم قد عرفتموه من قبل ولا آخر ستعرفونه في زمن قادم مجهول، هكذا إذاً ولدت أنا مجرداً من كل شيء ولا أدري لماذا حَمَّلني اسمي ومنذ طفولتي عبء التوقعات المستقبلية الكبرى.

أما والدي سالم سيف العاطف، فهو رجل سبيعيني لا يزال يعيش في منزلنا الصغير في ذلك الحي الهادئ الجميل الذي عرفته طفلاً وفتىً مغلوباً على أمره وشاباً قوياً، هو الرجل الذي يسلتذ في ابتكار المشكلات وفي الحديث عنها، وحتى في تخيل حدوثها وإن لم تكن، في حين ينفر تماماً لدى الحديث عن النجاحات التي تطال الآخرين وعن متع الحياة وملذاتها التي تستهلك مالاً وجهداً وعن السفر، آه السفر، تلك حكاية أخرى ترتبط بأسرة العاطف، تلتصق بها كتوأم ولد معها ويصعب فصله عنها، توثق حبال ارتباطها بذلك العالم إلى حدود تدهش من يتعرف إليها. لنعد إلى سالم العاطف حسناً بعبارة أخرى أشدّ اقتضاباً سالم سيف العاطف هو رجلٌ حريص على كل شيء، حريصٌ إلى حدود البخل البغيض في كل شيء حتى في المشاعر.

أما والدتي جنة والتي أخذت من اسمها صفات لا تحصى فهي جنة فعلاً لكل من يعرفها، صورة مغايرة لأبي، معطاءة متدفقة حنونة ومُحبة، يصعب عليَّ فهم كيف استطاعت احتمال التعايش مع سالم بكل ما فيه، عرفتها هكذا منذ ولدت بوجودها الحاضن للجميع، هي الخائفة علينا دوماً والمتجلية بحنان يعسُر فهمه، فرغم ما مرّ بها ومعها وما نالها، إلا أنها استطاعت الاحتفاظ بهذا المقدار الشاسع من الحب والبذل والتدفق، لم تنجح الدنيا في أن تعبث بتفاصيله.

حسناً، هؤلاء هم أهم من يستحقون الحديث عنهم لدى الخوض في حكايتي، إنهم الأهم والأجدر والأحق بالتدفق، اما تلك الحادثة التي أوشك على سرد تفاصيلها لكم فقد كانت خاتمتها في ديسمبر، لا أعلم لماذا كان عليها أن تكون في هذا الشهر تحديداً، هذا الشهر الذي أُحبه ويُحبني، والذي كلما عاود التجلي يغشاني بغلالة من ذاكرة مُزهرة، عندما طرحت عليّ الفكرة للمرة الأولى لم أجد لها صدى مقبولاً في روحي، على العكس كان الاستنكار والرفض هو ما قابلته، كان ردّي جاهزاً:

- لن أُغادر، لن أُعيد تكرار المُعضلة، لن أهب ابني مُعاناة لا تنقُصه ولن أُهديه وثيقة وطن قد يلفظه ذات ليلة إن هو غضب عليه أو قرر نفيه والتبرؤ منه.

كان هذا الحديث جزءاً من يومياتنا المشتركة خلال الشهور الستة الأخيرة، كما كان صوتي شكلاً من أشكال الردود المُعلبة التي أضطر لترددها على مَسمع سارة في كل مرة يطرقُ أبوابنا هذا الموضوع الثقيل. بالمناسبة سارة هي زوجتي، ابنة الثلاثة وعشرين ربيعاً، والتي لم يمضِ على زواجي بها سوى عام ونصف العام.

فمنذ أن عَلِمت سارة بنبأ حَملها، وهي تَستجلب كل طاقتها في إقناعي بأن نُغادر إلى هناك، إلى أي مكان تضعُنا فيه خُطانا عبر تلك الخارطة الشاسعة، إلى كندا أو إلى أستراليا بعدما أوصدت أمريكا كما دول كثيرة أبوابها في وجوهنا المُعفرة بالشقاء، نطيرُ إلى هناك حيث فُرص الحياة المُمكنة لأمثالنا تتبدى على نحوٍ وردي أنيقٍ يليقُ بالبشر، فنمنح طِفلنا وثيقة انتماء مُزيفة لتلك الدول، وثيقةً ستُعفيه من

الدخول في غِمار أزماتنا المُتكررة في تجديد وثائق الإقامة والسفر، كما سترحمه حتماً من مُعضلة استخراج التأشيرات وتُتيح له فضاء أرحب خارج حدود الوطن الضيقة، فتلك الوثيقة الحُلم ستُزيح عنه شُبهة وعناء الانتماء إلى وطن يزدحمُ بالكثير من تفاصيل الوجع، وترحمه من حِمل وزر الحُروب التي تَجتاح أراضيه منذ عقود. كان هذا منطق سارة الإنساني المُحق.

أعترف أنني أرى فيه منطقاً مقبولاً وواقعاً مُستحقاً، لكنني كُنتُ أرفضُ هذا المبدأ المُناور؛ فالوطن كما أراهُ أعمق من مُجرد ورقة انتماء صغيرة وأكبر من مُجرد مُستند مُزور قد يمنحك مشروعية الحياة أو الانتقال، هو أبعدُ من ذلك بكثير، فهو بالنسبة إليّ هواء انتماء وفضاء تعايش وممكنات حياة نقية لا يُعكرها هواء فُرقة آسن، تلك الحياة التي لا بد أن تتجلى لولدي المقبل بوضوح وبحق مُكتسب مشروع، لا مسروق ولا مُراوغ، ولكنها أفكار كما كانت تراها سارة والآخرون خائبة مخذولة أو عاطفية أكثر من اللازم وربما كانوا على حق.

- ليلى... صدقيني لن أقبل بخيارات أخرى.. لن أرضى بأي أشكال البدائل مهما اتسعت رقعتها وتعددت أشكالها، عندك ستقفُ كل المُمكنات..

- أتعلم يا عمر؟

كم أحب صوتك.. هذا المُتسع كفضاء شاسع تنبتُ على أطرافه نجوم مُشعة ترفضُ الانكدار، أحب تلك النظرة الكبرى الخارجة عن

طوق المُحتمل والمُفترض، لتحلّق في أفق لا يليق سوى بالمُقاتلين المجانين من أمثالك.

«قلبي يسائلني عليك، أين أنت، أين الحب، هل عادك حبيب؟».

ما زلتُ أتذكر جيداً تلك الأحاديث المصقولة ببريق لا ينطفئ، المدموغة برأسي بألف شكل وألف صورة.

قصتي مع ليلى لا تُشبه أي حكاية أخرى، فلم تكن قصة حب عادية تلك التي يرى فيها أصحابها ما يشبه المُعجزة التي ترفض التكرار، لا، فقد كانت أمراً آخر، كانت حكاية مُغايرة تقف بمُحاذاة الدهشة، وعلى مُفترق التصور لتصوغ شكلاً آخر لم يعرفهُ أحد من قبل.

إذا كانت ليلى وكانت خيانتي الأولى للقدر، كانت تمردي الجاهل الأول على نواميس الحياة الراسخة.

جهلاً أو عبثاً قررت العبث بالخارطة، أحببت أن أغير الأدوار، وهذا ما حدث..

تركتُ من خلفي مدينة خَرِبة تتعالى من فوقها أعمدة دخان أسود، وحكاية مسروقة تستحق السرد.

منطقي العاطفي الذي يدفعُني صوب خيارات كثيراً ما تبدو خائبةً وبلهاء، هو ذاتُه الذي جعلني أدفع ثمن قضايا كثيرة كان قلبي هو مُحركي ومورطي الأول فيها، الجميع بمن فيهم أبي وسارة وإخوتي،

كان الكل يقفُ خلف تلك القضية والكل يدعوني لإزاحة ذلك القلب وتلك المشاعر من درب العقلانية وأن أترُك لعقلي فُرصة التنفس، لذا كان عليَّ أخيراً أن أزيح واقعي الدافئ الذي طالما آمنت به وله، مُيمّماً الدفة لصالح منطق بارد يحكم الأمور، وهذا ما كان في آخر الأمر.

حين يُنجبُ البُنُّ ولداً
(عن صالحة حديثٌ قد يطول)

قرية صغيرة قرب حقول البن في جنوب شبه الجزيرة العربية

إنْ أردتُ أن أروي لكم الحكاية كما جاءت فعليَّ أن أبدأ بما كان وأن أسرد لكم ما حدث في الأزمنة البعيدة حيث لم أتخلق بعد، لأن حديثاً إن أردناه مكتملاً فلا بد أن يطال البدايات الأولى، تلك القديمة جداً، قبل أن أولد سأروي لكم كل ما حدث، كل شيء حتى ذاك الذي كان قبل أن أعرفه أو أتعرف عليه لأنه سيكون المهد الأول الذي بنيت عليه حياتي وحكايتي وكل عوالمي، علينا إذاً أن نبدأ من هناك.

حكايتي التي لا أعلم لماذا طرأ لي فجأة أن أدوِّنها، أن أسطر لكم تفاصيلها على نحو دقيق، وأن أسردها لكم، ربما لأنني لا أملك جرأة روايتها مشافهة، أو لأننا أنا وأنت سنفترق في محطة ما قبل أن يتسنى لك اكتشاف تفاصيل قصتي، ما أعرفه فقط أنني أردت أن أروي لعل هناك من مستمتع لهذه الرواية.

عمر سالم العاطف

مطلع أربعينات القرن العشرين
حقول البُن – قرية صغيرة قرب الحقول في جنوب شبه الجزيرة العربية

صالحة هي جدتي لأبي، زوجة سيف العاطف وأم أولاده، هذه المرأة العربية الجنوبية الأصيلة التي تفتخر دوماً بنَسَبها النادر المتحدر من إحدى أكبر عوائل الجنوب العربي بعرقها النقي المعروف وبجسدها الضئيل وبشرتها السمراء التي لوّحتها شمس الحقول الحارقة، وبشعرها البني اللامع المجدول في ضفيرتين طويلتين تتدليان على ظهرها، المنتصب دوماً، والمتسللتين من تحت غطائها الأسود المربوط بإحكام على رأسها.

لم تكن جدتي تظنّ أن المَخاض سيُفاجئها هناك في وسط الحقل، فقد أخبرتها قمزة قابلة القرية الرسمية أن موعد الوضع لا يزالُ بعيداً، فلن يجيء قبل سبعة أو تسعة أيام؛ لذا واصلت صالحة عملها في الحقل كعادتها، لكن يبدو أن قمزة أخطأت من جديد كما فعلت عندما أخبرتها بميلاد عافية التي جاءت قبل الموعد بأربعة أيام، بل يبدو أن الحسابات خانتها أكثر من المُعتاد هذه المرة.

تحاملت صالحة على صبرها الذي اعتادت أن تُسرجه كل صباح وهي تُخدد الأرض الطينية الرطبة وتحشوها مياهاً رقاقة، حيث تعمل في حقول البن التي تخص عائلتها والتي تمتد لتصل إلى نهايات تلك الأراضي الطينية المنبسطة البعيدة حيث تنتصب أشجار البن العتيقة بعناقيدها الخضراء المُتدلية، تسير صالحة في الممر المظلل بصعوبة

لتصل أخيراً إلى بيتها الطيني الصغير القريب جداً والذي لا يفصلها عنه سوى دربٍ أخضرَ صغير قطعته ببطء شديد.

لم تكنْ صالحة بحاجة إلى قابلة تساعدها في عملية الوضع، كما أن اليوم هو السبت حيث لا تعمل فيه قمزة عادة كسائر أبناء طائفتهم، لا يهم هذه رابع ولاداتها، وهي لا تحتاج إلى معونة أحد، فقط مريم ابنة السابعة، كُبرى بناتها إلى جوارها تُعينها، وبالفعل ما هي إلا دقائق حتى كان صياح الصغير يعلو في هواء المكان، هنا وُلِد سالم سيف العاطف... وُلِد أبي.

- مريم قولي لخالد يروح لابوج يخبره.

خالد ثالث أبناء سيف العاطف بعد صلاح ومريم، طفلٌ صغير بمقومات الرجال والتزماتهم الثقيلة هو سيد البيت في النهارات الطويلة فلم يأن أوان عمله مع الرجال في حقول الحِناء والبُن بعد؛ ليلٌ طويلٌ يفصل مواعيد العمل عن مواقيت العودة للمنزل، لذا كان خالد يقوم بأدوار الرجال المُرتجاة منه في المنزل وما جاوره رغم أنه لم يجاوز السادسة بعد بسمرته المقاربة للون الارض وبعينيه الواسعتين.

سريعاً ما حملت خالد أقدامُه الحافية صوب الحقل الأبعد، حيث يعمل والده، يطير لتنفيذ المطلوب منه طمعاً بالحصول على جزاء ذلك الخبر الجميل.

- وابا وابا(*)... أمي ربت(**)..

(*) وابا: نداء الأب في تلك المنطقة في جنوب شبه الجزيرة العربية.
(**) ربت: أي وضعت طفلاً باللهجة المحكية هناك.

هكذا إذاً جاء أبي إلى الدنيا، جاء سالم، رابع أبناء سيف العاطف، سليل سلطان المنطقة وأمير القرية الصغيرة المُزدحمة بالخُضرة صاحب الأراضي العامرة بالمحاصيل والزروع، أسرته التي عاشت لزمن طويل في هذه القرية الراسية بعنفوان، بوجودها الاقتصادي الضخم والسطوة المجتمعية الهائلة التي رسخها الارتباط الأسري الممتد بالقرى والمحافظات المجاورة لهذه القرية الكبيرة ببيوتها النابتة على أطراف الجبال، وبمرتفعاتها وينابيعها الحلوة العذبة.

القرية الذاكرة التي كانت المرتع والباعث الأول لما حدث وما سيحدث، بُقعة قصية تغيمُ بالنداوة في جنوب الجزيرة العربية، يقع منزل العائلة الكبير على رأس وادي المداد(*)، هذا الوادي الذي يغرق في مياهه عند سقوط الأمطار التي تتجمع مُشكِّلة بركاً شاسعة من المياه والطين لتُسقى منها الأراضي الواقعة في نطاقها، وصولاً إلى وادي حران ووادي الظاهر وما حولها من أراض، الأراضي الصلدة القاسية بنتوءاتها المتعرجة نقلت إلى أهلها تلك القسوة والصلابة التي يصعب أن تكسرها الأزمنة.

فرغم ما مرّ على العائلة وما شهدته من أحداث ومطبات إلّا أنها بقيت متمسكة بوجودها القوي على تلك الأرض.

لقد عنت تلك القرية الكثير لوالدي فقد بقيت حيةً في روحه ومُخترقة لتفاصيله أينما ابتعد وحيثما حملته الدنيا.

(*) وادي المداد: أحد أهم وديان جبل الجحاف في محافظة الضالع. (المصدر: ويكيبيديا بتصرّف).

نهايات أربعينات القرن العشرين

السنوات التي تحلق بسرعة الضوء بنا سرعان ما جرت لتصل إلى سالم العاطف هذا الطفل الذي أتم عامه الخامس، الطفل المجتهد والمختلف إلى حد الدهشة عن كُل أقرانه بروحه الدافقة الوثابة وابتسامته الماكرة التي تخبئ في أطرافها خُبثاً طفولياً فاضحاً، والذي نشأ وهو مدرك لكونه سليل أسرة العاطف صاحبة النفوذ والحظ الوافر في كل الاشياء، هذا الطفل الذي اعتاد أن يتعامل ويُعامل وفق هذا المنطق العشائري المُكثف فذلك الانتماء بذر في داخله هذا الفخر صعب الانتزاع كما حقنه بمقدار لا يفهم من العزة التي تستبين في ثنايا روحه وتصرفاته رغم صغره.

كان والدي يقضي نهاراته الريفية الطويلة في الحقول المُجاورة لمنزلهم الطيني بجدرانه الناتئة وغرفتيه الصغيرتين، هذا المنزل الصغير المُنتمي إلى منظومة أسرة العاطف ببيوتها المُتلاصقة الصغيرة والتي تتكاثر بعضها فوق بعض كبيوت النمل لتصبح على هيئة منظومة واحدة قرب القلعة الكبرى التي تُشكل قلب القرية.

للغرابة، لم تنشأ بين أبي وإخوته علاقة قوية كسائر العلاقات التي تنشأ بين الإخوة عادة، فقد كان يُفضل اقتحام المجهول كأن يقوم بمطاردة الصبية في مصبات المياه ليختبر مهاراته في القفز من فوق تلك المياه الضحلة والتفوق على الآخرين في ذلك، أو في خوض العركات الصبيانية الصغيرة التي يؤكد من خلالها على قوّته وأحقية انتمائه إلى تلك العائلة، كان يُمارس كل تلك التجارب ويخوض هذه المُغامرات دونما خوف وذلك لأن الحياة كانت تسير هناك بانسياب

وطبيعية، فالأرض والجبال والطين هي الحاضن الأول والأخير، لا خوفَ يلوّث الهواء من غرباء يغتالون هذا الاطمئنان أو يجرحون ذلك الأمان الهش؛ فالكل يعرف الكل، والجميع يثق بعضه ببعض، حتى أن الخيانة حينها كانت مُصطلح طارئ لم تعرفه بعدُ حياضُ تلك القرية الخضراء المطوية على نفسها.

أما المساءات الطويلة فكان يقضيها سالم في أحضان منزلهم الريفي الصغير ليزامله فيها صوت والدته وهي تروي لهم الحكايات الليلية عن أم الصبيان(*) بجسدها الضخم المُخيف، تلك التي تختطف الأطفال وتأكلهم إذا ما خرجوا من منازلهم بعد أن تنسدل العتمة.

على هذا النحو مرّت أيام الطفولة الأولى لسالم وهو يخترق البساتين العامرة بعناقيد بنٍّ حمراء تستعد للقطاف مُتدلية فوق رأسه، يطارد الفراشات في فصل الربيع، راكضاً صحبة رفقاء من عمره عبر الهضاب المُحاذية للحقول، نهارات طويلة يقضيها في اللعب وفي تسلق مُنحدرات الجبال التي تطوق المُحيط، مُغامرات طفولية تركت وسومها الجائرة على صفحة جسده الصغير، ونياشينها الغائرة في جلده أراها إلى اليوم بالغة الوضوح والسفور وهي تتبدى بعنفوان على جسد والدي السبعيني المُتعب، والذي ينتهز كل المواقف والمُناسبات المواتية ليُعلن عنها بكثير من الفخر والبهجة غير المُدركة

(*) أم الصبيان: أسطورة يمنية قديمة تحكي عن مخلوق خرافي يشبه أنثى الغول بملامح شديدة البشاعة تظهر غالباً ليلاً أو قبل الفجر على هيئة امرأة جميلة؛ تختطف الرجال وتتزوجهم، ثم تظهر بشكلها الحقيقي وتتسبب في جنونهم أو موتهم، كما أنها تظهر للصبيان الصغار وتتسبب بموتهم.

حينها، لأستشعر اليوم مصدر هذا الفخر ومردّ تلك البهجة المخبوءة، إنه الحنين، الحنين الذي يُحلق فوقنا ليحط في موطنه أخيراً، فلا يزال سالم العاطف منتمياً روحياً وجسدياً إلى تلك القرية.

في تلك الأثناء كانت التجارة الرائجة للأسرة والمحاصيل الغالية التي تجنيها وتبيعها بأسعار باهظة تُشكل مصدر قوة اجتماعية كبرى تدعم بوجودها هذا الانتماء العائلي الغائر في قلب الجزيرة، فلطالما افتخرت أسرة العاطف كونها إحدى القبائل التي يُشار إليها بالعرب العاربة هذا الأصل النقي والتي حرصت الأسرة على الإبقاء عليه على هذا النحو نقياً أصيلاً لا يخالطه نسبٌ مشبوه أو ارتباطٌ غير لائق، أصل وحضور ووجاهة اجتماعية مُدعمة بالمال والثروة والأراضي الزراعية الكبيرة المُمتدة، كل تلك الحقائق التي نشأ وكبر في ظلالها سالم العاطف وقبله سيف كما كل المُنتمين إليها، جعلت منهم أشخاصاً ذوي ثقل اجتماعي مُستبد ومُتسيّد يصعب هزيمته أو حتى هزّه.

فانتماء سالم إلى الفرع الأقرب للأسرة منحه تلقائياً ذلك الحضور المُهم وتلك الحظوة الكبرى، التي كانت تتعزز وتزداد بمرور الوقت، كما كان للأوضاع غير المستقرة التي هيمنت على المحيط واجتاحت قطاعات واسعة من الأراضي والقرى المجاورة جرّاء ما كان يحدث في فلسطين وإثر تأسيس دولة إسرائيل، عززت من حضور أسرة العاطف ومكّنها من بسط سطوتها وحضورها على المحيط، فوجود أزمات اجتماعية وأمنية من هذا النوع تفرض تدخلاً ضرورياً من قبل مركز السلطة والذي كانت تمثله سلطنة المنطقة، وذاك ما أصَّل في سالم إحساسه القوي بالانتماء وعزز شعوره بالمسؤولية التي تُلقى على كاهل أبناء هذه الأسرة والمنتمين إليها.

مطلع الخمسينات من القرن العشرين

في ظلال كل تلك التفاصيل كانت الأعوام تسير بسالم، بسكون واطمئنان وعلاقات أسرية مزدهرة جميلة، فما جمع بين سالم وأبيه سيف العاطف شَكَّل حالة خاصة يصعب وصفها أو تحديد نمطها، علاقة مُميزة صعبة الوصف والتحديد، علاقة تتخطى أُطر الاعتياد ومنطق الأبوة المحسوم لصالح المشاعر والإدراك، لتنتمي إلى نمط آخر من الأحاسيس التي لم يعرفها سيف سابقاً مع سائر أبنائه، ربما يرجع هذا الأمر لإدراكه الأولي أن قدوم سالم يُمثل تاريخاً جديداً يوشك على التجلي، تاريخاً كُتب لأسرته أن تشهده بمجيء سالم ربما لأنه كان يُدرك لاشعورياً أن سالم هو ابنه الأثير وكيف لا؟ أليس هو حصته الأبوية المُنتظرة وآخر عنقود العائلة الكبيرة المُمتدة.

- سالم ضوا العين.

بهذا الاسم المُحبب حرص سيف على مُناداة سالم فعُرِف بهذا الاسم بين أقرانه في القرية وفي تخوم القُرى المُجاورة لها، ليُصبح لقبه المائز له بين الجميع، الأمر الذي أثار غيرة إخوته وحفيظة أقرانه، كما كان سالم ودونما إدراك واع منه يعلم أنه صاحب الحظوة والشخص الأهم والأَوْلى في كل الأشياء، وهو المُتصدر الأوحد في ذلك المنزل الصغير وما يتعداه من أماكن داخل تلك القرية التي تخصهم بشكل أولي.

فوعي هذا الصبي الرجل الذي تشكل باكراً جعله يُدرك أن ما هو مطلوب منه كونه ينتمي إلى تلك الاسرة أن يتصرف على نحو خاص ويحيا وفق هذا النمط.

ولهذا القرب وتلك الأهمية كان من الطبيعي أن يُصبح سالم الطفل الوحيد الحاضر دوماً في مجالس الرجال، وبُصحبة والده في كل الزيارات والأعراس التي تُقام في القرية وما جاورها من بقاع.

في المُقابل وبحكم عمله البعيد الثقيل، كان سيف مُضطراً لأن يغيب أزمنة طويلة في العاصمة، فبعد ولادة سالم بشهور قليلة اتخذ سيف قراراً شُجاعاً فاجأ به نفسه قبل الجميع وهو تغيير مهنته التي احترفها لأعوام، فقد قرر سيف هجر الحقول التي تعرفه أرضها وتقاربه أشجارها وزورعها التي شبَّت وترعرعت على يديه وفي أحضانه، لصالح عالم جديد لم يختبره يوماً.

وقد فعل ذلك رغبة منه في خوض غمار دُنى جديدة لم تطأها روحه المُشاكسة سابقاً هو التواق دوماً لاختراق المجهول وسلوك دروبه الوعرة، فلم يكن المال ولا البحث عن دخل كبير هاجسه الأهم آنذاك؛ فالانتماء إلى أسرة العاطف المعروفة الثرية التي تشغل الجزء الجنوبي من البلاد، وتملك تلك السطوة الاجتماعية والمادية التي يُشهد لها، وهبَه فرص الثراء ومُمكناته الحلوة باكراً بينما كان الكثيرون من أبناء قريته يتجرعون قسوة الحاجة ومرارة تفاصيلها. إلى جانب كونه سليل أسرة مُمتدة، أبناؤها أقرب إلى حُكام تلك المنطقة إن لم يكونوا أعلى شأناً؛ فقبيلتهم كانت عبارة عن سلطنة مُصغرة تحتل موقعاً استراتيجياً في قلب المدينة الحصينة في ذلك الوقت، حيث تؤول إلى تلك الأسرة ملكية هكتارات شاسعة من الأطيان الزراعية المُحتشدة بالمحاصيل الثمينة كالبُرتقال والذُرة والبُن والعِنب وغيرها؛ الأمر الذي كان يُغني أبناءها عن طرْق أبواب الهجرة أو سيرها الخانقة.

لكن سيف بتلك الجذوة المُشتعلة في داخله مشاريعُ جنون يجنحُ صوب غير المتوقع دوماً، الأمر الذي دفع به صوب التقاط فُرصته الذهبية تلك عندما عُرض عليه العمل في الميناء المُشرف على المضيق والمُنفتح على البحر المُتسع والمُحتشد بفرص الانطلاق، ميناء عدن الذي يحتل مكانة مهمة على خارطة الموانئ العالمية والذي يقع على الساحل الجنوبي من خليج عدن، ليُصبح سيف العاطف هو المسؤول الأول عن نقل العمالة البحرية من وإلى الميناء عبر سيارة صغيرة سرعان ما أتقن قيادتها في الدروب المُتداخلة، ولتكبر هذه العربة شيئاً فشيئاً فيُصبح ذات يوم قريب صاحباً لأسطول من الحافلات البيضاء الصغيرة التي يُحشر في داخلها الركاب، والتي باتت تحظى بالكثير من الإقبال والرواج، ما جعل عمله يتسع لاحقاً ليشمل عدداً من الناقلات والحافلات الكُبرى، تلك التي تنقل البضائع والبشر وتجيء وتروح من هُنا إلى هُناك.

كانت تسحره مُشاهدة القوافل القادمة والمُحملة بأكوام الغموض والتماعات الوهج المُسافر عبر المسافات، ويُغريه منظر السفن الحاملة للمؤن والحكايات لترحل بها صوب سواحل بعيدة، ودونما وعي واضح المعالم كان السفر بكل رؤاه وذراته يتسربُ إليه، يجتاحه كما كانت تفعل المياه المُناورة على وجه صخور الميناء، حلم الارتحال عبر تلك القوافل المُثقلة بالوله الرطب رحيلاً من هنا أو وصولاً إلى هناك ظل يؤرقه، هي فتنةُ الترحال إذاً، تلك التي تتشرب أبناء هذه الأسرة وتتسرب إليهم مع الدماء والهواء دونما رغبة واعية أو شعور مُدرك.

عملٌ مثقلٌ بالدهشة والتحفُّز مكَّنه من أن يعود إلى قريته كل مرة

وهو مُحمل بكل ما هو مُثير وباهر، وفي كل عودة له من العاصمة كان يجيء لسالم بهدايا ولعبٍ غريبة تفتح أفق هذا الصبي على دهشة بازغة ترسبت في روحه وعقله إلى اليوم.

هدايا تأتي له مع ما يحمله رُكاب تلك السُفن والمراكب الثقيلة التي تعبر المضيق أو تأتي من خلاله، أو من تلك المراكب القادمة من بلاد الهند البعيدة، كان سيف يجيء لضو عينيه بالألعاب الخشبية، أو يأتيه حيناً آخر بعلب الحلوى الحمراء المُتلاصقة بالمكسرات النافرة فوقها من بلاد فارس بمذاقها الحلو المحشو بالزعفران، ناهيك عن الثياب التي لن تجد لها مثيلاً آنذاك، حتى أن أبي لا يزال يستحضر جيداً صور تلك الأحذية السوداء وكيف أنه كان يُباهي ببريقها الذي يُشرع العيون على اتساعها إذا ما دخل بها مجالس الرجال ليلاً، أو يزهو بقمصانه الحريرية البيضاء بياقاتها المُنشاة الناصعة، وغير ذلك كثير من أشياء صغيرة وكبيرة لا تزال قادرة على إحداث الأثر الجميل ذاته في روحه.

- يا زين تلك الأيام... ويا حلو ذيك الهدايا.. والله الحياة ما في أحلى منها هذاك الوقت... إاايه... الله يرحم الوالد.

هكذا اعتاد أبي سالم سيف العاطف أن يعود بعد رحلة الذكريات الحافلة بالكثير من الوله القديم الصاهل في كهوف ذاكرته التي باتت تهرم وتضيق وتمحو العديد من تفاصيلها، جُملة واحدة قاصمة اعتاد أن يختتم بها حديثه وسعادة أراها مُتبدية في ملامحه إذا ما مرت به تلك التفاصيل التي تجمعه بوالده، ذاك الشخص الأهم في حياته غياباً وحضوراً.

حين تنهارُ الجِبال

منتصف الخمسينات من القرن العشرين

قرية صغيرة على حدود جبال خُضر- جنوب شبه الجزيرة العربية

نحن في الشتاء وشتاء الجنوب لمن لا يعرفه شتاء قاسٍ جداً شديد البرودة إلى حد تتجمد معه الأطراف والأصابع، وما أجج تلك البرودة الصحراوية القاسية شح الأمطار في ذلك العام، ورغم مرور الأشهر وقرب انقضاء هذا الفصل الموحش إلا أن شتاء هذا العام لم يأن وقت رحيله بعد، على العكس فهو يبدو في عامه هذا ضارياً إلى درجة غريبة.

فلم تعد معه المواقد المنزلية الصغيرة كافية لبث الدفء في أوصال بيوت تنوء بأنفاس صغارها الذين يمتصهم البرد كل ليلة ليُلقيهم على قارعة المرض، وبيت سيف العاطف كان واحداً من سلسلة تلك البيوت الصغيرة التي تُناور الشتاء وتُحاول مُغالبته لتفشل في تلك المعركة.

البيوت الصغيرة المتجاورة التي تنتمي في جُلها إلى أسرة العاطف وأنسبائها والتي تبدو متشابهة من بعيد فالبناء البني المزين بأزياح بيضاء ناصعة يشبه بعضها بعضاً، بينما ما هو مختلف هو ما داخل تلك

البيوت وما خلف تلك الجدران، فصالحة كانت رجل البيت الحقيقي في غياب سيف، كانت الواجهة التي تتصدر كل شيء وكل زمن.

الوقت قُبيل العصر، كما يبدو مُنذ بزوغه الأول في بدايات هذا المساء، قاتم مصحوب بغيوم مُلبدة بالفزع.

كانت صالحة قد انتهت باكراً من ري الأرض، صُحبة نساء القرية اللواتي يعملن في هذا الوقت من العام إلى جانب رجالهن لغرس ثمار البُن وترطيب الأرض التي تحتضنها استعداداً لمواسم قادمة من الحصاد المُحتشد بالعطاء المُرتجى، لم يكن مر على عودتها إلى منزلها الصغير أكثر من ساعتين، حين شرعت في إعداد طعام العشاء للصغار وهي تُلقي بنظراتها المُتلهفة على وجهَي خالد وسالم اللذين ما غادرتهما الحُمّى منذ أكثر من أربعة أيام.

بعد أن انسدلت عباءة الليل فوق المكان لتبقى أصوات الطبيعة وحدها مُتسيدة على ما عداها، وفي الوقت الذي انبعثت فيه من البيوت الطينية المُتجاورة رائحة الحطب المُشتعل، لتُخلف في الهواء رائحة دفء مشوب بالهواجس، كانت صالحة على غير عادتها تذرع المدخل الرئيسي للمنزل المُشرف على الحقل الذي عملت فيه بجهد بيِّن طوال النهار، شيء ما كان يُنبئها بالأمر، ربما تلك الحُلكة التي كانت تنسدل كستار غير مرئي فوق الأماكن والأشياء من حولها، هي ما كانت تمنحها ذلك الشعور الموغل في غرابته.

ليُسمع عن بُعد وقع أقدام غريبة تقترب من المنزل الصغير لتتحطم على إثرها بقايا أغصان الأشجار التي يبست وآن الأوان لرحيلها، المياه تتسرب من الأحذية التي يعلقُ بها الطين المُنسلخ من الأرض الرطبة التي رويت بسخاء.

تطلعت صالحة نحو الأصوات المُقبلة والمُحملة بالأسى، لينزلق حزن أزرق على رأسها المُجلل بالسواد، ولأنها كانت تنتمي إلى أولئك النساء اللواتي يلتقطن الأسى عن بُعد، فما إن لمحت القادمين حتى سارعت بإدخال الصغار إلى المنزل الذي تُرك بابه مواراباً عن هلع، في مصادفة قدرية كتبها الكون لترتسم على هذا النحو المُحزن.

صرخة أمه المشحونة بقدر مهول من الفزع لا تزال ماثلة في رأسه ولا يزال يستذكرها والدي بكل المشاعر التي طوقته في لحظتها، كان صراخها عالياً حتى إنه وصل إلى البيوت المُجاورة ليُخرج ساكنيها والخوف يزحفُ على وجوههم المغبرّة بالشقاء والوهن.

- سيف العاطف.. مات... توفي بحادث سير وهو يقود القاطرة الخارجة من الميناء صوب المدينة.

- أظن خذته أم الصبيان... إيه... خذته أكيد.

هذا كان تفسير صالحة للأمر، هكذا بررت الأمر للجميع، وجدته تفسيراً مُنصفاً لأن يختطف الموت منها زوجها القوي، المُتعافي، هكذا فجأة كان الخبرُ قاصماً وضربةً مُهلكةً لصالحة ولصغارها، لكنها عنت شيئاً آخر لسالم؛ فهنا وهنا فقط فقدَ سالم ميناء أمانِه ومرفأ السكون الذي اعتاد أن ترسو عنده أحلامه وأمانيه وتفاصيل أيامه.

وكم كان هذا الفراقُ موجعاً له، وكم ترك في روحه حزناً لم ولن يغيب أو يزول.

حُزنٌ رانٍ على سفحِ الجبل

منتصف الخمسينات من القرن العشرين

مات إذاً سيف العاطف، رحل عن الدنيا لتفرغ القرية من روحها وليسقُط عمود بيته مُدوياً تاركاً في الفراغ بقايا غُبارٍ أحمر، كان مُتكَأ الجميع ومرفأهم، بما في ذلك والده وأسرته القريبة وأعمامه وأخواله، الكل كان يشعر بالخذلان والحزن لذلك الرحيل الذي ما كان له أن يكون لو لم يتخذ سيف ذلك القرار بأن يرحل عن القرية صوب ذلك الميناء الغادر، وكأن قريتهم مُحصنة من غدر الموت أو أن من يسكنها يأمن يده الطويلة.

أسوأ ما في الأمر أن سيف رحل ليترُك صالحة وأطفاله الصغار مُتأرجحين في الهواء بحثاً عن قدرهم وحياتهم ومُمكنات تعايشهم مع المُقبل المجهول، رحل لتفرغ الأماكن من طيفه وظله وصوته وليحل الفراغ والحزن محل كل الأشياء بالنسبة لأطفاله وزوجته وكل محبّيه.

أما سالم فالأمرُ معه اختلف؛ غياب سيف العاطف عنَى له غياباً كلياً عن كل ما يُحيط به، تغيراً كبيراً طال منظومة عيشه الجميلة، فبعثرها وأحالها شتاتاً مُمزقاً.

تأقلم سالم مع الواقع الجديد استغرق منه الكثير من الجُهد

والزمن، فجأة غابت عنه الهدايا الجميلة، واختفت علب الحلوى واللعب الملونة التي لا يزال يحتفظ ببقاياها في صناديق حديدية ملونة يعلو بعضها بعضاً في غُرفته التي باتت تضيقُ بجسده وروحه.

سالم العاطف تحوَّل خلال هذا الزمن القياسي إلى رجل مُكتمل يُعيل والدته بعدما تفتَّتت أسرته واتسعت، إخوته -الأطفال في أعراف الدُنيا وعينها- انتقلوا للعيش في بيوت أزواجهم الموزَّعة في مُحيط منزلهم الطيني الصغير وفي مداه، حتى إن بعضهم بات يعول طفلين أو أكثر، أما صالحة التي بدا لها رحيل زوجها مُهلكاً وصادماً أول الأمر فقد استطاعت وبسرعة غريبة أن تجيِّر الزمن والظروف لصالحها، ألم تكن الرجل بحضوره فالقيام بأدوار الرجال في غيابه أسهل، فخلال شهور تلت غياب رجلها سارعت بتزويج من تبقى من أبنائها من أقارب وأباعد لا يربطها بهم سوى خيط ضعيف واهن من نسبٍ يكادُ يُنسى، في الوقت ذاته كانت تُشرف على محاصيل الحقول وعلى إدارة ما ورثته عن زوجها من مُفردات التجارة المُتناثرة، حتى المبالغ المالية الكبيرة التي جناها سيف في سنوات عمله القصيرة في الميناء إلى جانب تعويض ضئيل منحتها إياه شركة التأمين، استثمرتها كُلها في شراء حُلي ذهبية ثقيلة باتت تطوق عُنقها وتُثقل ذراعيها، وما تبقى من رذاذ المال المُتناثر فقد اشترت به صالحة قطعاً كبيرةً من الأراضي الزراعية ألحقتها بأرض سيف العاطف ولكن بعقود ملكية تحمل اسمها وحده.

تلك الأمور لم تُثر انتباه أو حفيظة أحد، فالجميع كان ينظرُ إلى الأمر على أنه ذكاء امرأة تسعى إلى حماية أطفالها من شرور زمنٍ يتربصُ بهم، كما أن صالحة التي لم تتخطَّ الأربعين بعد لم تتوقف

يوماً عن تذكير نفسها بأنها امرأة جميلة لم تُغادر حدائق أنوثتها بعد، تلك الأنوثة التي كانت تُنفق الكثير من الوقت والجُهد في الاهتمام بها وإظهارها.

إلا أن الشيء الأبرز الذي أضفاه رحيل زوجها المُبكر تمَثل في غلظة سكنت ملامحها الرقيقة لتتبدى في ثنايا ابتسامة ناصعة تكشف عن سنها الذهبي، وتنفذ عبر نظراتها المُدججة بكحلها الأسود الحالك، كما تتجلى بوضوح في تفاصيل تعاملها مع الجميع، هذه الشدة بدت في أوج انبلاجها عبر علاقتها بسالم، رجلها الصغير، كانت تقول للجميع:

- صالحة الأولية ماعادت هي صالحة اليوم أنا اليوم ظهر هالعيال ومكان أبوهم.

كل تلك الأمور التي اتسقت مع إيقاع الحياة وتفاصيلها المُرة الموازية للوجع حولت هذا الطفل ذا الخمسة عشر عاماً بين ليلة وضحاها إلى رجل مشوش يسكن زوايا البيت الصغير ويتسيده.

بات يقضي جُل نهاراته البائسة في الإشراف على العمال في الحقل الرئيسي الذي تؤول ملكيته لصالحة، كما يقوم أحياناً وبطلب مباشر منها بمعاونة الأقرباء في الحقول المُجاورة لمنزلهم، هذا الذكاء الاجتماعي التجاري كانت صالحة تُجيد استخدامه وتطويعه لكل ما يصبُ في مصلحتها، أرادت من خلاله وعبر تلك المشاركة المُتلبسة بثياب الخيرية أن تُحافظ على المكانة العائلية الرفيعة، وتصون تلك الحظوة المُجتمعية المُميزة التي تملكها عائلة العاطف هُناك، كانت امراة ذكية بقدر ما كانت قاسية راسخة، كانت القرية

آنذاك تشهد أطواراً من التغير الاجتماعي، فالحديث عن الدول الناشئة المُحيطة وعن فرص العمل السانحة المُمتدة كان يجتاح الأجواء كما كانت القوافل المُسافرة براً تعرف ازدياداً ملحوظاً، أول طارقي تلك الدروب كان بدر العاطف ابن عم سالم أول أفرع المُتعلمين في تلك الأسرة، فقد نال شهادته العليا من جامعة القاهرة حيث أرسله والده إلى هناك بعدما أنهى دراسته الثانوية في مدارس عدن النظامية، أراد لهذا الولد النابغ مُستقبلاً باهراً كان يراه مُستحقاً لينال شهادة عليا في تخصص علمي مرموق هذا المؤهل الذي لا يتسق مع واقع القرية البدائي، ليرحل صوب تلك المدينة الصحراوية القاحلة حيث شركة النفط المؤسسة حديثاً تستقطب حَمَلة الدرجات العلمية من الذين يجيدون العربية والإنجليزية ليكونوا صلة الوصل بين الأمريكان والعرب، وهذا ما كان؛ رحل بمباركة الأسرة وليتحول بعد وقت قصير إلى مصدر فخر كبير لهم.

تلك الحكايات التي كانت تخترق روح سالم وتُشعل فيها وميضاً غير مفهوم كانت تدفعه صوب تقصّي تلك القصص وتتبّع المُسافرين باحثاً عن كيفية الرحيل وفُرصه واحتمالاته وكُلفته، كان يستغل تلك اللحظات السانحة في لحظات الانتظار بين عمل وعمل في مُراقبة الصغار والكبار وهم يتسلقون سقوف تلك الحافلة الصفراء التي تنقل الراغبين بالسفر إلى حدود القرية حيث فُرص السفر والانفلات من إسارها الخانق، حسدٌ يتسلل إلى روحه وهو يرمق أفواج الراحلين، كان الكل يتزاحم ليتسلق سقف تلك الحافلة ومثلهم يفعل سالم في أحيان كثيرة، كان يقف على سطحها مُلتقطاً المحيط، شعور يمنحه قدراً مُبهجاً من الفرح وإحساساً غامراً بالعلو والسيطرة.

أما مساءات سالم المُتسعة كعباءة سوداء لامعة تطرَّزت فيما ما مضى بأحاديث والده وتزينت بزياراتهم المُشتركة للجيران وللمجالس الرجالية، فقد غابت هي الأخرى، استعاض عنها سالم بالانفراد والتجلي على سفوح جبال قريبة تهديه رياحاً ناعمة في مثل هذا الوقت من الليل الذي يرين على المُحيط بنجوم مُتناثرة وبصمتٍ لا يُمزقه سوى أصوات حشرات ليلية تمنحه دفئاً وسكناً موعوداً، صمتٍ يؤجج حُزنه ويدفعه للتفكير فيما ستؤول إليه الحال، أو يُحيله صوب التساؤل عما سيحدثُ معه في مُقبل الأيام، هو المُستعد للرحيل والمُتلهف لطرق أبوابه المُغرية.

تَبتلعُ أهلها

منتصف الخمسينات من القرن العشرين
قرية صغيرة على حدود جبال خُضر –
جنوب شبه الجزيرة العربية

قبيلة العاطف الكبيرة، مثَّلت سداً نفسياً منيعاً لسالم وإخوته، سداً في وجه الطمع والخوف توأمَي اليُتم والعراء، كانت أسرته حاضرة في حياته وفي تفاصيله، ولعل هذا الحضور هو ما منحه هذا الارتكاز الاجتماعي الثقيل الذي يستبين عبر تصرفاته وأفعاله، فعلى الرغم من التفتت الذي بدأ يطول هذه العائلة الكبيرة، بفعل الهجرات التي تبناها عدد كبير من أبناء الاسرة، فجزء واسع من جيل العائلة الشاب هاجر إلى إندونسيا والهند واستقر هناك، إلى جانب جزء كبير آخر قرر السفر صوب دول الخليج القريبة جداً جغرافياً واجتماعياً مؤسسين جاليات كبيرة هناك، السفر، والخروج من بوتقة القرية الضيقة مثل الحلم الذي بقي يُداعب مُخيلة سالم ويُحرضه على البحث عن ممكناته وكيفياته.

في الوقت ذاته كانت الفجوة التي تفصلُ سالم عن والدته تزداد اتساعاً بمرور الزمن، بينما لم تبذل صالحة أي جهدٍ لمحاولةِ ردمها

أو حتى الحدِّ من اتساعها، على العكس، كانت تبدو أكثر اشتغالاً بذاتها لتزدادَ يوماً بعد آخر ابتعاداً عن دنياها وأولادها وكل ما جمعها بهم ذات يوم، ما انعكس سلباً على علاقتها بالأقربين وعلى الأخص بسالم.

كانت صالحة تصرف جُل وقتها وجهدها في متابعة المحاصيل وتوسيع رقعة الأراضي التي تملكها وهو ما يستهلك أغلب الزمن ومُعظم ساعات اليوم، وما تبقى لها من نثار الوقت فإنها تصرفه للعناية بنفسها وشكلها الذي باتت تحبه وتتقن إبراز جمالياته.

صالحة التي اتسعت رقعة أعمالها إدارياً وفنياً، مما دفعها للاستعانة بعدد من الرجال لإدارة قطع الأراضي التابعة لها، ومن ضمن هؤلاء عادل ابن بكر الذي اختارته مُشرفاً على الأراضي الغربية قرب الوادي ليتولى إدارة شؤونها، كل الرجال الذين تولوا إدارة الأراضي جاؤوا كأمر طبيعي وفي سياقه، أما أن تختار عادل تحديداً فهو ما أثار انتباه سالم، ولفت نظره إلى وثوق تلك العلاقة التي بدأت تأخذ بمرور الزمن منحى وانعطافات جديدة ليصبح عادل بعد وقت قصير مصدر ثقتها ومستودع أسرارها، في الوقت ذاته كانت صالحة تحرص على توسيع دائرة العلاقات الاجتماعية التي تربطها بأسرة زوجها، فضلاً عن استحداث شبكة إنسانية أخرى بموزاتها مع أفراد قبائل المُحيط القوية، كل تلك الأمور منحت صالحة شخصية جديدة قوية كما منحتها ثقلاً وحضوراً لا يغفله أحد.

كل تلك الأمور التي عززت من فرص انفصال سالم عن والدته كانت شيئاً وما حدث في ذلك النهار الذي بدا غريباً جداً كان شيئاً آخر تماماً، هذا النهار الشتوي بضوئه الشاحب وهدوئه المُريب

والمُنذر بما سيحدث، والذي جاء كمُقدمات انفصال مؤكد وحتمي يتربصُ بهما في الأفق.

كان أحد تلك النهارات المشغولة جداً، حيث موعدُ القطاف المُرتقب للمحصول الأهم في القرية قاطبة؛ ذلك البُنُّ الثمين، فالأغصان المُثقلة بأحمالها تحولت أخيراً من لونها الأخضر الذي طال به الزمن إلى اللون الأحمر لتتخذ الثمار شكلها الكرزي الجميل مؤْذِنةً باقتراب موعد الحصاد السنوي، تحولٌ ظَل مُنتظَراً قرابة الأربعة أعوام جاءهم أخيراً، فقد فضّلت صالحة جني الثمار في أوائل مراحل نضوجها، تلك الثمار التي بُذِرت بها الجهة الغربية من أطيان سيف العاطف في العام الذي رحل فيه، لِيأْن وقت حصادها اليوم.

لذا بدا حقلهم وما جاوره من حقول أخرى مُزدحماً وفي ذروة انشغاله، حتى إن سالم استيقظ باكراً على صوت المؤذن وهو يرفع أذان الفجر، وبعد أن أدى صلواته في المسجد القريب من المنزل، اعتمر العُصبة البنية(*) الصوفية الثقيلة، وارتدى المعوز الشتوي استعداداً لنهار طويل ينتظره، بينما كانت السماء تُهدي الأرض قطراتها الباردة الأولى التي بدأت تزدادُ غزارة على مدى النهار.

وصل إلى الحقل قبل الجميع، لم يكن هناك سوى عادل ابن بكر الذي لن يفوت فرصة من هذا النوع، فهو موعد لن يتكرر كثيراً وفرصة ذهبية لإثبات قربه وحظوته، كان هو وسالم أول الواصلين إلى الحقل، ليلحق بهما كل من خالد وصلاح، أخويه اللذين كانا

(*) عصبة الرأس: غطاء الرأس الذي يكون عبارة عن شال صوفي ثقيل يستخدمه الرجال في تغطية رؤوسهم بعد طيه أكثر من مرة.

يساعدانه في هذه الفترات من السنة تحديداً، دون باقي أوقات السنة، واللذين حرصا على التواجد في وقت قطاف الثمار وبيع المحاصيل، سالم بحسه المُتقدم عن عمره بأعوام كان يُدركُ أن وجودهما يعني بشكل ما ضمان حصولهما على حصة مالية من الغلال وليست مشاركة فعلية منهما في تلك المهام؛ فمنذ وفاة سيف العاطف وهمُّ العمل وثقله مُلقَيان على كاهل سالم كونه الأصغر والأعزب والأقل انشغالاً وفق أعرافهم ورؤيتهم، وهو حقاً خير من حمل همّاً بتلك الدرجة المُنهكة، الا أن الامور بكل تفاصيلها المالية كانت تؤول في نهاية الأمر لصالحة فهي الآمرة الناهية صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في كل الأمور، وهي من تصب في رصيدها الأموال المُتحصلة من بيع المحاصيل والغلال.

كان النهار يسيرُ ثقيلاً مُزدحماً ومُجهداً إلى أقصى حدوده كما كان انهمار مياه الأمطار في ازدياد، فالسماء تواصل زخ حباتها على الأرض المُنتظرة، فقريتهم معروفة بغزارة الأمطار وقسوة الشتاء، والتي يجيد أهل القرية التعامل معها.

سالم يقف في الوسط يرقب عملية الجني والمياه تغطي ثوبه ورأسه، بينما يجلس أخواه تحت فيء العريش المُرتفع يشربان شايهما الساخن ويرقبان ما يحدث عن بُعد، وفجأة، صوت واحد يأتي من بعيد، صراخٌ غيرُ مفهوم، همهمةٌ مُحمَّلة بضجة لا تقفُ ولا تستقر، دارت رؤوس الرجال صوب مصدر الصوت الذي اجتاح المكان وطوّق المُحيط، عبد الله أكبر أبناء خالد يصرخ ملء صدره:

- واباه واباه... محمد جرفه السيل... محمد خذاه السيل.

- وين؟ أي سيل؟..

انتفض خالد واقفاً ليسقط المعوز(*) الذي كان يرتديه أرضاً، انطلق راكضاً صوب ابنه محاولاً اللحاق بلهاثه وبصوته، لم يتأخر صلاح طويلاً ليلحق بأخيه راكضاً صوب الوادي المُتسع في أطراف الجبل الشاهق المنحدرةُ منه المياه بعنف وصخب مُرعب.

أما سالم فقد جمّده الخوف، مَسْمَرَته الصدمة في الأرض لتنغرس قدماه في تراب الحقل وليصبح وفي لحظة واحدة إحدى أشجارها الباسقة الممتدة جذورها عميقاً بينما يهزها الهواء بعنف حتى توشك على السقوط..

بعد زمن لا يدري كم طال به استطاع الخروج من إسار التراب الذي طوَّقه، ركض صوبهم مُيمّماً نحو الوادي الذي تغتاله المياه بعنف..

كان أنين زوجة أخيه يشقُّ الهواء، صراخ بأصوات تمتزج لتؤلف مقطوعة حزن موجعة، ذكّره هذا الصراخ بذاك الذي جاءه من أمه يوم مات سيف العاطف..

صالحة وحدها وقفت هناك على طرف المشهد ترقب من بعيد ما يحدث دون أن تُبدي تفاعلاً من أي نوع، بينما تنسدل على وجهها لامبالاة فاضحة يتسرب من ثقوبها الصمت.

كان خالد مُنكباً يحتضن ما تبقى من ابنه بكثير من الحنان الغريب، مُنحنياً فوق الجسد الغارق بالبرودة يعتصره بأسى.

هنا أدرك سالم أن الموت والضياع والظلام هي الأقدار الصماء التي كُتبت لهذه الأرض، وأنه إن لم يُغادرها فسوف تبتلعه، بشكل ما، ماء كان أم يابسة.. هو سُيبتلع لا محالة.

(*) المعوز: الرداء الملون الذي يلبس فوق الثوب الأبيض.

أواخر الخمسينات من القرن العشرين

شتاءٌ جديد يحلُّ على القرية الناعسة على الحُزن، لم يمُر على رحيل محمد سوى بضعة أشهر، أشهر قصار كانت كفيلة بأن ترمم مشاعر الجميع، بمن فيهم خالد الذي ظن الكُل أن رحيل أحد أبنائه سيحطمه، سيحوِّله إلى رجل جديد مُختلف لا يُشبه ذاك الذي كانه في عمرٍ ماض، لكنه فعلياً لم يتغير، وكأن تلك اللحظة الفارقة الموجعة التي مرت به وهو يحتضن ابنه للمرة الأخيرة على كتف الوادي لم تكن أبداً، وكأن ما مر بالجميع حادث عرضي أو موقف صغير آن له أن يُنسى ويُغيَّب لتحل الحياة بأطيافها وتفاصيلها وتزيحه تماماً وتمحوه وكل أثر خلَّفه في الروح والعقل.

جاء الشتاء إذاً، بهوائه البارد الذي يُغلف القلوب والبيوت وبأمطاره التي باتت تُرعب سالم أكثر من الاعتياد وتُسبب له دوماً حالة من التراجع الموجع صوب مُمكنات البحث عن الأمان، هو من يفقد يوماً بعد آخر شخصاً ما وعالماً ما، ليحيا في ظلال دنيا تناور الأمان والدفء.

أما صالحة فقد مرت بها الحادثة على نحو عادي إلى حد الاستفزاز، وكأنها قررت التخلي عن قطعة أرض تخصها أو حتى فقدت قرطاً ذهبياً من أقراطها التي تتدلى لتصل إلى كتفها المُرتفعة أبداً بإباء وعِزة، بل إن رحيل محمد وفقدانه بدَوَا أبسط وأقل أهمية؛ ففي ظل ارتفاع قيمة الأراضي وتزايد رصيد الأموال في ميزان صالحة تراجعت قيمة الأسرة والأبناء، كانت صالحة دوماً الأم الصلبة والمرأة المُتكأ، هكذا رآها الجميع وهكذا أرادت أن تُرَى، وحده

سالم من شعر أن تلك الحادثة شطرته إلى نصفين، تلك الحادثة الحدث نجحت في أن تُمزق روحه وتسكن مُخيلته لأعوام، فلم تغادره صورة محمد وهو جسد مسجى على قارعة الأرض تتشربه المياه والأحزان.

ولم ينسَ كيف بكاه خالد وكيف دفنته القرية بحزن واجم أبكم، حادثة تركته مُمزقاً كأن لم يكن واحداً من قبل، الأسوأ هو ما تلا الحادثة، في القرار الذي أعلنته صالحة لأبنائها مساء تلك الجمعة الحزينة عند اجتماعهم المُعتاد حول أقداح الشاي وفناجين القهوة الدافئة..

- أنا بتزوج عادل..

- عادل من؟

قالها صلاح باستفسار المُستنكِر لما يسمع.

- عادل بن بكر المُشرف على أرضنا الغربية..

قالتها كأمر مُقرر واقع لا محالة، نقلت القرار بإصرار فاجأ الجميع ما عدا سالماً الذي توقع أن تؤول العلاقة إلى هذا المآل إن عاجلاً أم آجلاً، ندت عنه ابتسامة صغيرة نثرها في وجوه إخوته، ابتسامة المُدرك لما سيحدث.

وبأموالها وأطيانها وقبضتها الإنسانية المُحكمة على مصيرها ومصير العائلة، لم تواجه صالحة أزمة الرفض أو المُعارضة طويلاً، فقد اضطر الجميع للإقرار والتسليم لها بهذا الحق المشروع؛ شابّة ومن حقها البحث عن رجل يُشاركها سنواتها القادمة ويحمل معها عبء التجارة المُتنامية.

وحده سالم لم يقبل الفكرة ولم يُقر لها بهذا الحق، على العكس رآها بذلك تجور على حقه المُطلق بأن ينعم بدفء حضورها الذي ما عاد له وجود منذ أعوام، رأى أن القدر ظالم إلى حد لا يرحم، سلبه والده أولاً واليوم أتى الدور على أمه، لتتركه هي الأخرى، فإن كان رحيل أبيه قسرياً بلا إرداة منه فإن رحيل أمه يأتي منها بكامل الرغبة والتأييد، وهو ما لن يُسامحها عليه أبداً.

إلى اليوم، لا يزال أبي، الرجل الكبير المُهاب، سالم العاطف، يستحضر بوضوح المساء الذي شهد فيه خروج والدته من منزلهم الريفي الصغير بصحبة جمع من نساء القرية والعائلة لتزف لعريسها الشاب، أيدٍ كثيرة لا يعرفها امتدت لتمنعه حين حاول الركض صوبها يريد اللحاق بها.

وإلى اليوم، كلما رحل أبي صوب قريته البعيدة زائراً اجتاحته غمامة حزن لتُسدل ستائرها الرمادية على رأسه فتبعث بألم تلك التجربة وتفاصيلها المُزعجة إلى قلبه مُجدداً مُستعيداً كل شيء فيها، فلم يستطع الزمن الذي جاوز نصف القرن أن يمحو مرارتها رغم اجتهاده في محوها، الغريب في كل هذا أن صالحة وإن تخطاها الزمن وعبرتها السنوات بقيت تلك المرأة التي خذلت ابنها يوماً، والقادرة أبداً على إحداث الزوابع القاتلة في مُحيط عائلتها، وهذا ما حدث لاحقاً.

زفافٌ أسود ومنزلٌ أبيض

أواخر الخمسينات من القرن العشرين

كان لصالحة ما أرادت إذاً، عرس قروي باذخ جمع أكابر القرية وسادتها، وبيت جديد أرادت له أن يكون فخماً وكبيراً، منزلٌ بحوائط بيضاء ونوافذ واسعة وشُرفة تتدلى فوق الوادي الأخضر المُمتد بإغراء بديع، كان ذانِكَ البيت والعرس سامراً يتقاذفه أهل القرية وسط جلسات المساء الطويلة وعلى ضوء قناديل ناعسة ونار تجتذب الجميع من حولها في هذا الشتاء الموشك على الأفول.

وحدهما صالحة وزوجها من سكن البيت الجديد الشاسع، أما منزلها الصغير جوار حقول البن، مسقط رأس أبنائها جميعاً وعشها الأول مع سيف العاطف، فقد غادرته بسرعة وبلا أسف، كأنها أرادت أن تخلع ذلك الماضي، أن تُسقطه من على كتفَيها المُثقلتين بالثراء والأموال، تركت المنزل لسالم ليؤثثه بوحدته ويجتذب إليه حزنه وأساه.

وبقدر انزعاجه من زواج والدته والذي قبله مُرغماً وبلا إرادة فقد كان سالم سعيداً بوحدته، بوجوده في هذه البُقعة الصغيرة المُنعزلة البعيدة عن العالم بضجيجه وازدحامه؛ يكفيه ما ناله من القرية، تلك

التي جعلته رجلاً باكراً، باكراً جداً، رجلاً لمّا يُجاوز الثمانية عشر عاماً، لكنه رجل حقيقي بهموم ومسؤوليات وذاكرة تفوقه بأعوام.

لعل ما مر به هو ما نقله من ذلك الطفل الصغير إلى هذا الرجل الذي أصبحه اليوم، حوَّله إلى صورة أبي الذي لم أعرف سواه، بكل صلفه وشدّته وعنفوانه، وبكل نوبات غضبه غير المفهومة وبكل تجليات بخله التي لا تغيب عنه.

صوب الحضارة ناحية الصحراء

نهاية الخمسينات من القرن العشرين
باتجاه شبه الجزيرة العربية

السفر، الحُلم المُشتهى، أمنية سالم التي ما فارقته بل ازدادت فيه توغلاً وحضوراً، أشهر قليلة فقط فصلت بين زواج صالحة واتخاذ سالم للقرار الذي جاء بكل إصرار ورغبة لم تُفهم في حينها، كان قراراً راسخاً وواضحاً في رأسه وضوح ذلك البيت الأبيض المُنتصب بشموخ على سفح الوادي، فالمبالغ المالية الكبيرة التي جناها هو وإخوته هذا العام بعد بيع المحاصيل لم تعد تعني له شيئاً، رغم أنها ما فتئت تثير شهية وغيرة الكثيرين من أبناء المُحيط، ولم يعد يُغرِيه الحضور الاجتماعي الكبير المُمتد الذي بدا في أوجه آنذاك، كل ذلك وسواه من أمور لم تعد كافية لأن تُقنعه بالتراجع عن قراره، حتى صالحة عجزت مع كل ما تملك من قوة أن تمنعه من المُضي قُدماً في تنفيذ قراره العنيد رغم ردودها الجافة الجاهزة التي تُشهرها في وجهه كُلما طرق أبواب هذا الموضوع معها، ففي صيف تلك السنة قرر سالم أن يحزم حقائب الأمل الموزعة في مُحيط قريته

الصغيرة ليرحل بها صوب المدينة الشاهقة في انفصالها والبازغة تواً من رمال الصحراء المصَدِّرة للقيظ والصهد.

قراره الصعب والثقيل في الرحيل من قريته الصغيرة النائمة على أهداب الغمام إلى هذا البلد الصغير المُنتشي برائحة النفط والمُتدثر بالكثير من الرمال، لم يكن بالأمر السهل ولا بالخيار الهيّن عليه، فالسفر بقي طارقاً يلوح له في كل وقت، ويجتاحه في كثير من الأحيان، إلا أن تلك الحكاية توغلت إلى روحه أكثر، وباتت أكثر حضوراً في ذلك المساء الشتوي الذي كان فيه ضيفاً في مجلس سيف حين حل عليهم عمه القادم تواً على متن الغبار من مدينة التجارة والأموال مُتحدثاً عن أشخاص جُدد وعوالم واعدة ودُنيا محشوة بالبهجة، ظل يروي والكل يتلقى باستمتاع مُريب صعب الفهم، إلا أن وقع الحديث على أُذن سالم كان مُختلفاً عن الجميع؛ فقد أدرك من كل تلك القصص المُتراكبة أنه وُلِد ليُسافر، وأن عليه أن يرتحل من هُنا ليختبر حياة أخرى، حياة ستكون أفضل بالتأكيد من عيشه التعس في قرية لم تُلقمه سوى الأسى ولم تحقنه سوى بالفقد والخسارة الموجعة في كل حين. تلك الليلة وبعدما نفذ ما سمعه من حديث بارق إلى روحه وداخله، جاء هذا التحول، قرر سالم الرحيل إذاً، فلم يعد لديه ما يخسره، على العكس فالسفر بالنسبة لأمثاله يُعزز فرص الكسب والربح.

فأسرته الصغيرة التي تفتَّتت بعد وفاة والده وزواج والدته، لم تعد حاضرة وقريبة كما كانت في الماضي، وعلى الرغم من الحضور العائلي الكبير الذي لا يزال يتسيد القرية ويعلوها، إلا أن بيته بات خالياً وقريته أمست تُشرف على هاوية المجاعة.

الرحيل إذاً بات أمراً لا مفر منه؛ هذا الرحيل الذي سبقه إليه الكثير من الأصدقاء الذين أقدموا على تلك الخطوة باكراً، مُرتحلين صوب الخارج بحثاً عن فضاء مادي واقتصادي أرحب وأكثر ازدهاراً، ما حفّزه لأن يحذو حذوهم.

في ذلك المساء المنزوي على حزنه وكآبته حزم سالم حقائبه، ورحل صوب داخل الجزيرة الصفراء خائضاً غمار الصحراء المؤجَّجة لهيباً وحرائق، في طريقه إلى المدينة البازغة الواقعة على أعتاب الخليج العربي، تلك التي تحدّث عنها عم سيف في مجلسهم، هي الواعدة بالثراء والمُزدحمة بفُرص العمل المولودة بفعل التعداد السكاني المحدود وتعدد المهن الشاغرة، مدينة تزدهي بالمدنية المُرتجاة وتفتح أذرعها الجافة الصغيرة أمام فرص الانفتاح صوب كل ما هو جديد.

رحل صُحبة عدد من شباب القرية من أمثاله ممن أغرتهم فتنة الهجرة وراقت لهم فكرة الرحيل هرباً من واقع لا تشي معالمه بأي خير، بحثاً عن وطن أكثر أمناً ومالاً وحضارة، هُم من لم يعلموا حينها أن وطنهم الناشب في عمق الأرض والمُتربع على رؤوس الجبال كان آنذاك هو الأكثر حضارة وتألقاً من هذه المُدن الصغيرة التي لا تزال تحاول الانبعاث من رمال بداوتها.

وعلى الرغم من كل ما خامر تلك التجربة من وعود ومخاوف، فقد قرر سالم العاطف حزم أمتعته الصغار وأحلامه الكبار على لهفة مُتجاوزاً حدود وطنه الحادة التي يعرف أبعادها ويحفظُ استداراتها وزواياها جيداً، هذا الوطن المُنكفئ على نفسه في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية ليرحل مُخترقاً صحراء الربع الخالي القاحلة برحلة

أقرب ما تكون إلى الأفلام والقصص المُختلقة منها إلى الواقع.

وبصُحبة رفاقٍ جمعتهم شهوة السفر كان الارتحال في جماعة صغيرة مُستقلين الحافلة الصفراء الحُلم المُختنقة بركابها المُتعلقين على سقفها عبر ذلك السلم المُلتصق بنهايتها لتصل إلى داخل الصحراء المُتناثرة رمالاً مُشتعلة. نهارات طويلة حارة جداً بليال قصيرة مقطوعة الأنفاس لا تعرف هواء بارداً قضوها جماعات وأفراداً في هذا الفضاء المُلتهب.

أيام طويلة مرت عليهم في مُحاولات جاهدة لاجتياز مُدن ومحطات وعوالم سائرين وركباناً ومُتنقلين في مركبات لا يعرفون قائديها، مواجهات مُفزعة مع قُطاع الطرق والأحلام والتقاطعات المُروعة مع احتمالات الموت تحت وطأة الحرارة واللهيب الذي لا يرحم شيئاً ولا أحداً، مُحاولات المشي بمحاذاة متاهات الضياع والخوف من الوقوع المُرتقب في فوهة الظمأ، كل تلك التفاصيل المُرعبة وقبلها توجّس الوطوء في عالم يجهله ويرتقبه، رافقته في رحلته الغريبة صوب مدينته الواعدة.

حكايات بكل تفاصيلها المُذهلة والموجعة كان والدي يستحضرها هو وصديقه الحميم، والد صديقي المُقرب وجارنا الأقرب سيف، في جلسات الأنس والسمر. أتذكر كيف روى لنا قصة تلك الرصاصة التي مرت بمحاذاة والدي في لحظة غفلة فلم تكتب لها الأقدار أن تسكن جسده اليافع آنذاك، قصة مُدهشة تتركنا دوماً مُشرعين أفواهنا صوب المُقبل من حكاية لم تكتمل بعد..

دهاليزُ قائظة

مطلع الستينات من القرن العشرين

دولة صغيرة في شبه الجزيرة العربية - جنوب غربي آسيا

محطة والدي الأولى، كانت في هذه المدينة اليانعة التي تناهت إليه أخبارها عبر أفواه الرجال الذين مروا به في قريتهم، تشكلت معالم هذه الدولة بمقدم سالم إليها، أصبحت أخيراً دولة لها شرعية واستقلالية تتجلى في وضح النهار.

لم يكن يظن سالم عندما حط رحاله هنا أنه سيقع في حُب هذه المدينة الصغيرة التي فتنته بشوارعها البدائية المتوشحة بالتراب والطين، تلك المدينة النامية على أعتاب بحر أزرق، التي تحاول إعادة خلق نفسها بإصرار له ما يُبرره، كان يرى في الدروب البدائية التي يطرقها في الصباحات والأماسي مباني المدارس النظامية البازغة، وهي تستقبل الطلبة في الصباحات الباكرة لتعود وتلفظهم مع حلول المساء، أحب هذا الهدوء الذي يسكن الفرجان(*) إذا انسدلت العتمة، وراودته لذة تلك البلاد الجميلة بتعدادها السكاني المحدود، ومجتمعها الوليد الذي يُحاول أن يخلق من بين أبنائه جيلاً مُتعلماً يعتاد ارتياد المدارس النظامية.

(*) الفرجان: ترمز للاحياء.

عند حلوله الأول لفتته تلك البيوت الكبيرة بتصاميمها العربية الغريبة عليه، والتي بدأت تغزو المناطق المُتناثرة في فضائها خالقة أزياحاً وزوايا جديدة لم تعرفها هذه الإمارة الناشئة من قبل، كما لم يشعر بالاغتراب الذي خاف من خيالاته القاتمة قُبيل سفره، فأبو بدر صاحب محل الخضار الكبير، والذي تعرّف عليه فور حلوله في المدينة الصغيرة فكان بمثابة الاخ الأكبر له، فقد حرص أبو بدر على أن يوثق حبال ارتباطه بسالم الذي استشعر فيه الأمانة والثقة ، ليُسند له إدارة المحل الواقع في الجبره الرئيسية (الفرضة)(*) يبيع الخضروات والفاكهة التي تختلف تبعاً للمواسم التي تُزرع فيها، مهنة سرعان ما أتقن أبعادها، ليزداد قُرباً وارتباطاً بهذا الرجل، الذي يتدفق حناناً وطيبةً ناضحة، فعرف تفاصيل التجارة وعوالمها الدقيقة التي قد تبدو مُضنية، ليتطور تدريجياً ويؤسس بمساعدة أبو بدر تجارته الخاصه به، محلاً صغيراً لبيع الخضروات والفاكهة في السوق الكبير قرب مسجد بن بحر، دكاناً صغيراً مُستأجراً يبيع فيه الخضروات والفواكه والتمور الآتية عبر التجار القادمين من العراق وبلاد الشام، تجارة صغيرة يُتقن تفاصيلها ويجيد إدارتها، هذه التجارة المُتنامية التي حققت له الكثير من الأرباح غير المتوقعة، نجاحاً زرع في داخله بذار الثقة بما يفعله وما يحدُث معه، هو من لم يُصدق يوماً أنه سيكون قادرا على الخروج من خاصرة القرية المزروعة في السماء ليبني عالما إنسانياً واجتماعياً مُزدهراً وحقيقياً، فأن يُحقق نجاحاً جدياً مُستحقاً بعيداً عن مُحيطه الذي يعرفه ذاك كان شيئاً آخر بالنسبة لابن قرية صغير مثله.

(*) الفرضة: هي السوق التجاري الرئيسي والمُخصص لبيع الفواكه والخضروات والأطعمة.

هذا التطور الذي أشعل في داخله مساحات الثقة الفارغة كما منحه فرصة التمازج مع أنماط مُختلفة من البشر، اختلافاً جعل منه في غضون زمن قياسي صغير رجلاً مُغايراً، رجلاً أكثر خبرة وأشد حنكة ودراية، مُنتقلاً شعورياً ونفسياً من كونه رجلاً ريفياً صغيراً لم يعرف يوماً سوى قريته البدائية إلى هذا التاجر المُحترف الذي يعرف البشر ويُتقن التجارة والتفاوض ويُجيد خوض الدروب التي تقوده صوب فُرص المكاسب.

عامان قضاهما في هذه المدينة، اتسعت خلالهما دائرة علاقته وتنامى فيهما عدد أصدقائه ومعارفه ؛ فإلى جانب أصدقاء الرحلة ممن قرروا الاستقرار هنا وممن وطدت مطبات ومراحل تلك الرحلة عُرى الصداقة والقرب بينهم، فقد تعرف سالم على عدد آخر من أبناء القرى المُجاورة ممن سبقوه إلى هذه المدينة ليصبحوا اليوم أقرب ما يكونون إلى أهلها، أولئك جميعاً كانوا شركاء بيته الصغير.

قُرب منطقة الحزام الأخضر في وسط المدينة الصغيرة آنذاك انتصب هذا البيت الحجري بطلائه البُني الخشن، هذا المنزل الذي سكن سالم إحدى غُرفه التي تُشرف على فضاءات صغيرة تضم الماشية والزروع يحوطها دهاليز تطوق تلك الفُسح المفتوحة على السماء، يفترشها ليلاً في فصول الصيف الطويلة التي تُخرج الأرواح من جوفها في محاولة لاستجلاب شيء من برودة لا تأتي غالباً.

بيته الجميل الذي يألفه وتجارته الرائجة ورفقته المُعتادة، كلها لم تكن أبداً قادرة على أن تمحو تلك اللعنة التي توطنت في جسده وسكنت عقله المُتخم بالرؤى والأحلام.

في تلك الأثناء كانت الأخبار التي تصل من القرية لا تشي بأي

خير، لم يكن قد مر على نشوب ثورة أكتوبر أكثر من أربعة أشهر، الثورة التي قامت ضد المستعمر البريطاني وانطلقت شرارتها الأولى من منحدرات التلال القريبة تلك التي تعرفهم ويعرفونها، تلال ردفان(*) المُطَوِّقة لبيوتهم.

فالأوضاع في تلك القرية المعتادة على الأمن والهدوء صارت تسير باتجاه الأسوأ فيما كانت الآلة العسكرية البريطانية تُمارس سطوتها الثقيلة على السكان الآمنين؛ وجُزء كبير من أراضٍ اعتادت أن تكون عامرة ويانعة باتت إما مهجورة من قِبل أهلها بعدما اختاروا الرحيل صوب بقاع أخرى جديدة أكثر أمناً، أو تحولت إلى أرض جرداء يعلوها السواد الأصم والحرائق المُحزنة، الأمر الذي ألقى بظلاله على واقع المستوى المعيشي لجميع السكان، بمن في ذلك الميسورون منهم.

وكما حدث في المرة الأولى جاءه صديق يُحدثه عن مدينة جديدة نامية على الطرف الشرقي من الخليج العربي، مدينة تمنح الوافدين إليها فُرص عمل بدخول مُرتفعة، والأهم أنها تمنحهم تلك الوثائق الثمينة، جوازات السفر التي تؤكد انتماءهم إليها وتتيح لأصحابها سهولة الانتقال وانسيابيته بين الدول المحيطة، إغراء ما بعده إغراء، نما واشتعل وتجذر ليدفعه دونما إدراك لحزم حقائبه التي تضخمت واتسعت مُيمّماً صوب وجهة جديدة لا يعرفها..

(*) تلال الردفان: هي منطقة في جمهورية اليمن تعدّ جزءاً من إمارة الضالع وتتكون من أربع مديريات وتتبع محافظة لحج جنوب شرقي اليمن. أعلى نقطة فيها هي حورية وتقع على ارتفاع 6125 قدماً. (المصدر: ويكيبيديا بتصرّف).

صوب الجنوب

بدايات الستينات من القرن العشرين

من شرق إلى شرق

إن سكنت جسدك يوماً شهوة السفر وتشعبت خطوط الارتحال الغائرة في مسامك التي لاتُرى سيصعب عليك حينها أن تحيا بمنطق الآخرين. عليك أن تكون أبداً ذلك الشخص الذي لا يُشبه سوى نفسه، لعلها نبوءة عرافة قديمة لم يعرفها سوى في أحلام ما كانت أبداً أو لعلها حُلم استبد برأسه المزروع بالكثير من الهواجس إلا أن ما كان يُدركه جيدا بمنطق القروي الجائع للتجربة المُنتظر أبداً لجديد يحمله على متن غيمة أو قافلة هو أن عليه أن يرحل، أن يغادر تلك البقعة المُحتشدة بالحُلم والجمال راحلاً صوب ما يمكن أن يكون وطناً جديداً يليق بحلمه.

لم يكن قرار رحيله هذه المرة بالأمر السهل أو اليسير كشأن رحيله الأول، بل كان يُربي في داخله شيئاً لم يكن مفهوماً صوب مفاهيم السفر والاقتلاع من أرض غُرست فيها جذور عميقة غائرة، كان غياباً مُراً.

نعم لم يبقَ سالماً الذي كانه يوم هرب مُستتراً بظلمة الليل سارقاً أملاً من جوف أرض رطبة لم تعده سوى بالأسى، فتلك الرحلة الفارقة أعادت تشكيل دنياه... غمرته بفيض إنساني غامر من قوة... ليتخلق رجلاً مُغايراً جديداً لا يعرف نفسه.

أما صالحة، أمه صالحة مصدر ضعفه وأساه فهي بقيت عالقة في منطقة ما في رأسه بين الغيب والإدراك لم ينقطع حبله المُعلق بها أبداً، كان يصله صوتها المُحتشد برهانات قوّته عن بعد، وهو يهبها تساؤلات حول الوطن والأحوال لم تغب يوماً عن ذهنه، كما لم تنقطع الأموال التي كان يُرسلها لها بشكل دوري، ما أثار دهشتها أول الأمر؛ فقد بقيت صالحة المُراهن الأكبر على خسارته وأن طفلها سالم حتماً سيكون بحاجة إلى مُساعدتها وهو يخوض غمار تجربة جديدة في أرض غريبة، لتُفاجأ به يُرسل لها هدايا غالية وأموالاً تتضاعف في كل مرة لتأتيها مُندسة في جيوب العائدين إلى الوطن والزائرين له، أموالاً تفوح من ثناياها رائحة الزهو. كان يكسوها رداء باذخ من فخر وهي تقول للجميع:

- سالم عساه دوم سالم.. لا خلا ولا عدم برجلي وولدي..

تقولها ملء فمها وروحها وهي تستعرض أساورها الذهبية الثقيلة أو وهي تُشعل المدفأة الكبيرة التي تعبأ بالكيروسين فتشتعل ببريق أحمر جذاب يُبهر أبناء القرية البسطاء، ولتنتشي هي تباهياً وفخراً بأصغر أبنائها وأكثرهم رجولة.

أما هو ورغم مظاهر الوفاء والبر التي تتبدى في تعاطيه مع أمه وأقربائه، إلا أنه لم يعد يشعر بذلك الحنين المُضني الذي يشتعل في القلوب إذا ما فارقت الوطن والأم، ذلك الفراق والحزن الذي يتجلى

ويندّاح في الوجوه والأجساد التي ترافقه ويعرفها، فيتركه دوماً مُعلقاً على حبال الدهشة والغرابة.

كأنه ما كان هناك يوماً وما شدّته إلى القرية خيوط ودّ ونَسَبٍ هي في واقعها أشد وثوقاً، لذا استطاع سالم أن ينتصر لتلك الأسطورة، أن ينحاز لمُقتضاها، أن يستجيب لما تفرضه عليه، ليرحل عن تلك المدينة التي أحب في صباح يُشبه إلى حد كبير مساء اليوم الذي غادر فيه قريته تاركاً جبال جحاف(*) خلفه ومُيمّماً خارج حدود إب(**) إلا أنه هذه المرة خرج من الخفجي صوب الأحساء(***) ومروراً بالهفوف(****) وصولاً إلى وجهته المقصودة أخيراً.

(*) جحاف: جبل ضخم يشغل الناحية الغربية لسهل مدينة الضالع، وتقع فيه قمة تسمى قمة جبل المنار الذي يبلغ ارتفاعها (7840 قدماً) عن مستوى سطح البحر. (المصدر: ويكيبيديا بتصرّف).

(**) إب: محافظة يمنية تقع إلى الجنوب من العاصمة صنعاء، وتبعد عن العاصمة بحدود (193 كم) وتتصل بمحافظة ذمار من الشمال ومحافظة تعز من الجنوب، ويطلق عليها لقب (اللواء الأخضر)، لأنها من أجمل مدن الجمهورية. (المصدر: ويكيبيديا بتصرّف).

(***) الأحساء: محافظة تقع في الجهة الشرقية من المملكة العربية السعودية كانت في الماضي واحة طبيعية. (المصدر: ويكيبيديا بتصرّف).

(****) الهفوف: مدينة سعودية تقع في منطقة الأحساء السعودية. (المصدر: ويكيبيديا بتصرّف).

يوميات القيظِ والعطش

بدايات الستينات من القرن العشرين

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

كان لا بد للنبوءة أن تتحقق إذاً، كان لا بد لها أن تسقط في وسط حلقات القدر الصلب الذي يصعب كسره، كان على النبوءة أن تستجيب لخطى بلقيس. . . كان عليه أن يرحل. . ولكن لم ينتظره هدهد في الطريق هكذا إذا قادته خطاه في ترحال صعب متعرج ينطلق من المُنحدرات الجبلية المُحتشدة بالاخضرار والمُشبعة بالزروع اليانعة مروراً بالدروب الصحراوية القاحلة إلا من الأمل، لتحط به أخيراً هنا في شرق شبه الجزيرة العربية تحديداً في هذه البُقعة الوليدة التي جاءته سيرتها مُتأخرة على أفواه زائريها، تروي عن أرض صغيرة بناس طيبين وبساطة تهفو مع رياحها الجافة، لا أعلم كيف كانت مدينتي حين يرويها أبي فتلك الهادئة المُنزوية الخجلى لم أعرفها كما عاصرها هو، أنا لم أرَها سوى فتيّة قوية مُنتصبة، زمن من عُمر الأوطان ليس طويلاً ولكنه كفيل بإعادة تشكيل الخارطة بإعادة رسم الزمن وتكثيف الوجود.

قصة البدايات كشأن كل الأشياء في تكوّنها الأول تُثير في داخلي ملايين الأسئلة حول الجدوى والمآل.

كان وطني الذي عرفه أبي آنذاك كأغلب دول المنطقة خاضعاً للحماية البريطانية، إلا أن اكتشاف ذلك الذهب الأسود في أعقاب الاتفافية التي وقعت مع الشركة الإنغلو- فارسية للتنقيب عن النفط، أخرجه من بوتقته الصغرى ليُعيد تشكيله على كل المستويات ليُخلق وطناً بأبعاد مُختلفة لم يكن يعرفها، فرصاً اقتصادية واعدة وأعمالاً مُتنامية تتناثر أمام الراغبين في اقتناص الفُرص الوظيفية المُغرية بالنجاح والثروة، لذا كانت هذه الأرض وجهة لكل المُشبعين بأحلام الثراء والمهاجرة صوب ذلك الكيان الصغير الناشئ، والأهم جاءت بالحالمين في الحصول على وثائق انتماء سحرية تهبهم رسوخاً مُستحقاً على هذه الأرض، هؤلاء كلهم رحلوا صوبها وصوب أرض تُشبهها بشغف الباحثين عن مُمكنات حقيقية للحياة بعدما افتقدوها في أوطانهم التي مُزقت ولم تعد أرضها قادرة على احتمال انبثاقهم أكثر.

وهكذا كان أبي سالم سيف العاطف، أحد هؤلاء المُرتحلين صوب تلك البُقعة الناشئة، لينجح هذا العشريني المُشاكس في أن يضع له أقداماً ثابتة على تلك الأرض المولودة تواً؛ مُلتحقاً بقطاع الجيش الذي كان في طور التشكُّل والانبعاث والذي كان يضم عددا من الوافدين الذين كانوا من أوائل المُلتحقين بصفوفه، وإن كانوا ممن يفتقرون إلى الخبرة أو تعوزهم المعرفة العسكرية، ولكنها الحاجة التي تُبعث مع تشكّل الأوطان كمُستلزمات الوجود وضرورات التواجد.

سالم العاطف بعزمه الصلد وشغفه المُشاكس نجح سريعاً في التعرف على مُفردات العمل الجديد والتماهي مع الوظيفة الغريبة على

دُنياه وعالمه بتفاصيلها الصعبة والغريبة عليه في أول الأمر لينجح وفي زمن محدود في أن يصبح أحد أفراد القطاع المُتميزين الذين يصعُب التخلي عنهم.

وشيئاً فشيئاً استطاعت تلك المدينة أن تُخلّص سالم من لعنته، وأن تمنحه انتماءً أصيلاً لتلك الأرض التي تعرّف عليها تواً، كانت هذه المدينة الوليدة حينها تخطو أولى خطواتها صوب الحضارة مُتعثرة بتقاليدها الموروثة، ومُحاولةً الخروج من عباءة أفكار مُجتمعها الصغير يُربكها التعداد المحدود مُحاولةً فرض مدنية ومؤسساتية تُحاول التخلُّق بصعوبة.

كانت الأسواق الكبيرة التي نُشاهدها اليوم بزهو وتباهٍ لا تعدو أن تكون بسطات صغيرة يبيع فيها أهلها بعض البضائع الرخيصة المحدودة وغالباً ما تكون من صناعة المنازل الحجرية المتواضعة والمُتكئة بعضها على بعض.

المنزل الأول لأبي في وطني - وكم هي مُفارقة بائسة - فأن تنسب لنفسك وطناً لم يعرفك إلا كياناً طارئاً جاء ليقتات أمرٌ قد لا يقبله منطق ولا حتى موضوع - المنزل الأول لأبي كما يتذكره، كان يختبئ في أحد المُنعطفات الترابية في حي يحمل اسم إحدى العوائل الكبيرة التي تقطنه، حي بسيط كسائر الأحياء آنذاك، يعشش على سقفه التقشف والزُهد، كانت المياه العذبة النادرة تُنقل على ظهور الدواب في بلد يشكو تجفافاً وتصحراً، وتلك صدمة من نوع آخر أذهلت أبي القادم من بلاد الينابيع الحلوة والمياه المُتفتقة انبعاثات تشبُع. حتى تلك المدينة الصغيرة التي مر بها قبل قدومه إلى هنا كانت مثلها ينقُصها الماء ومعالم الحضارة التي توقعها.

كانت الحياة في أحد أوجهها في مدينته الجديدة تلك نقيض قريته، تُشكّل وجهاً آخر، وجهاً يلهج بالحرارة ويعمرُ بالعطش، لكنها كانت له كما أراد لنفسه أن تكون، مُحاولة وجود جديدة، تجربة أراد من خلالها إثبات أنه ابن العاطف العنيد المُناضل والقادر أبداً على الثبات وأنه مهما اهتزت الأرض من تحت قدمَيه هو القادر دوماً على التأقلم مع ظروف انسانية وجغرافية عديدة مهما استعصت وصعُبت.

حبل الوصل المُعلق مع قريته لم ينقطع برحيله إلى هنا؛ بل على العكس ازداد وثوقاً ومتانة، كان المبلغ الشهري الذي يُرسله إلى هناك يتنامى في كل مرة، تنامياً اتسع ليشمل إلى جانب والدته إخوته وأقرباءه بدرجات تتراوح قُرباً وابتعاداً حتى أولئك الذين يوم كان بينهم أقرب من المُفترض باتوا يرمون شباك ودهم الوثير على مدى اتساع الكون عبر الهاتف وعبر الرسائل المكتوبة وعبر ما استطاعوا، يبثونه أشواقاً لم تكن موجودة سابقاً ويهبونه دعوات مُغلفة بمطالب واحتياجات تخصهم أو تخص أولادهم وعائلاتهم التي تكبُر وتتسع وتمتد في مُقابل انحسار مالي يطال جميع من هناك وفي ظل تضاؤل فرص العمل في قريته التي تضمر وتتيبس.

أما والدته صالحة التي لا ينقطع ذكر سالم عن لسانها أبداً فهي لم تعد تُخفي دموعها المُتسربة في ثنايا الرسائل المُجعدة التي تصله مطوية مع ثياب القادمين من هناك وهي تفوح برائحة البُن والحناء، تلك الحناء الفاخرة التي تأتي محمولة إليه مع جرار العسل المُنساب دبقاً وشوقاً وأحاديث، هذه المحاصيل الغالية والزائدة عن حاجته والتي يقتسم جزءاً كبيراً منها مع من حوله من أصدقائه وأبناء وطنه المُغتربين الذين تشهد أعدادهم تزايداً واتساعاً مُستمراً... تلك

المؤن الثمينة التي باتت ولا تزال تُذكر به وبنا وكأنها لعنة القرية المُلتصقة بنا لتقول لنا بشكل صارخ (أنتم من هناك).

كما كان سالم العاطف حاضراً هناك في بؤرة تكوّنه الأولى، فلم يتبرأ يوماً من شُبهة الانتساب إلى ذلك المكان وإن طاردته شهوة الانتماء إلى هناك لذا كان يزور القرية كلما سنحت له الفرصة لذلك، زيارات خاطفة مُتعجلة تنضو على قلبه إحساسه المُستمر بالذنب والتقصير أزمنة قصار، تُطبق على أنفاسه فيحرص على اختصار زمنها ما استطاع، يعود بعدها سريعاً إلى حيث هنا، يعود مُحملاً بجرار العسل الثمين وانبعاثات وجع واشتياق لا يجد له تأويلاً محتملاً.

بداياتُ الانصهار

منتصف الستينات من القرن العشرين

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

ولأن وطني في ذلك الحين كان يعيش أطواره الأولى وكانت كل الأشياء فيه تبدأ من ماقبل التواجد، فقد كانت كل القطاعات التي تُشكل شرايين الدُّول الحقيقية وأعصابها لم تعرف وجوداً حقيقياً بعد، كما كل المهن كانت هي الأخرى تعيش أطوار الانبعاث الأولى.

سائقاً في الجيش الناشئ هكذا بدأ أبي سالم سيف العاطف مشواره المهني في وطني، معلم رئيسي حرصت هذه البلدان الصغيرة على خلقه كونه حصن دفاعها الأول عن الوجود المُستحدث، فعقلية الصحراء بحروبها ومُستعمراتها انتقلت لتسكن أروقة هذه الكيانات الصُغرى، قطاع بدأ ينمو تدريجياً كسائر القطاعات الأخرى في هذا الوطن المُراهق.

الوظيفة التي بدأت معه كسائق صغير يعمل ناقلاً للجنود من ثكنة قريبة على رأس الساحل إلى ثكنة أخرى تحتل رأساً لساحل آخر أو يابسة مُجاورة، في بلد ذي حدود جغرافية مُتناهية الصغر يشق طريقه

صوب الأطوار الأولى للتخلُّق تطورت سريعاً تبعاً لمُقتضيات فرضتها الحاجة وشح الحضور العربي في تلك الأوطان، كما عززها هو بمثابرته وعزمه الثقيل الذي حمله على كتفَيه من هناك والذي استطاع بفضله أن يرتقي سلم الوظيفة البسيطة ليحمل رتباً عسكرية بدت أول الأمر متواضعة وعادية لكنها كانت كفيلة بأن تحمله إلى عوالم جديدة مُدهشة أرادها وتمناها وحلم بها طويلاً، كانت مُمكنات الانتماء إلى هذه الأوطان الوليدة مشروعة وتكاد تكون مُستحقة. حلمٌ يطرق رأس سالم بعنف ويُحرضه على بذل جُهد مُضاعف لنوال هذا الشرف الكبير.

- إنت يا سالم ريال والنعم فيك وتستحق اللي وصلته.. وكله بكدك وتعبك..

كان ذاك صوت قائده وهو يُبلغه بالترقية المُنتظرة التي تمنى سالم طويلاً أن تأتيه مشفوعة بأوراق انتماء شرعية، ظل يُمني نفسه فيها كُل مرة.

- يا ولد الحلال اصبر.. صدقني ما هي إلا كمِّن يوم وتلقى الجواز بيدك.. أنا سمعت إن التجنيس قريب وأنا أخوك.

صديق الغربة وجار اليوم عبد الله الذي ينتظر معه حلول المُعجزة التي ستُحيل سنواتهم القادمة إلى مرحلة جديدة مُغايرة لم يكن مُتاح لهم التفكير في تفاصيلها من قبل... حلم مشروع ممزوج بحب بدأ يشقُ طريقه في روح سالم فلقد استطاع وخلال فترة وجيزة الاندماج

مع هذا المُجتمع، فقد تسلل حُب هذه البُقعة البعيدة بتفاصيلها تماماً عن قريته إلى روحه العنيدة، وتخلق في داخله نحوها قرباً وولاءً باعثين على الفرح.

في تلك الأثناء التي بدأت جذوره تمتد عميقاً في هذه الأرض النافره صوب مياه الخليج المالحة والمُشبعة بكم مهول من الجفاف بدأت بموزاتها أسئلة الانتماء وأحقيته تتنامى في داخله على نحوٍ مؤرق ملحاح، أيجب أن يكون انتمائه الأول والأخير إلى تلك القرية التي ولد فيها حيث مسقط هويته وترددات وجوده الإنساني العميق هذه القطعة الريفية البعيدة التي لم تمنحه سوى الأسى واليُتم المُبكر؟؟ أم إلى هذا الوطن الذي يهبه يوماً بعد آخر فرص حياة زاهية لم تكن في الحسبان؟؟.

وعلى الرغم من كل تلك الأسئلة المشروعة والتساؤلات المُستحقة وكل تلك المطبات الشعورية التي يجد سالم نفسه متورطاً فيها، فقد استطاعت هذه المدينة الصغيرة أن تطوع جموحه وأن تروضه لصالح الصبر.

استطاع سالم مواصلة صبره المُر المُمتزج بمتعة الحياة وحلاوتها، فتلك الحياة كانت بالنسبة له كل ما أراد مرحلياً، حياة جديدة في مُجتمع حديث في طور التشكُّل، إمكانات ثراء تبدو قريبة جداً في أفق الحياة التي يعرفها هنا وبدأ يُحبها.

الخطوات الأولى نحو الرسوخ المُستحق في هذا العالم الجديد كانت عبارة عن منزل صغير مُنفصل اكتراه، حجرتين صغيرتين تتكئ إحداهما على الأخرى بعد أن كان شريكاً في بناء مُكتظ بأصدقاء يعرفهم أو أُجبر على التعرف عليهم.

الاستقلال الأول كان له طعمٌ آخر، سيارته الفولكس البيضاء المُتهالكة قديمة الطراز، التي بدت له في تلك الأيام أثمن سيارة يمكن أن يقودها شخص في مثل سنه، عنت له الكثير من الأشياء على بساطتها وضآلة حجمها المادي، للغرابة لا يزال أبي إلى اليوم مُغرماً بقيادة السيارات قديمة الطراز مولعاً بها إلى درجة تُثير الدهشة، ربما لأن للبدايات سحرها المتواصل معه رغم كل الاقتراب الظاهري كان يحيا تحت ظلال الأمن، ظلال تقول له أسراراً وإعلاناً: أنت لست ابناً فعلياً لهذا الوطن لتفعل ما تريد، أنت إلى الآن ضيف على هذا الوطن لا اكثر ضيفا عليه أن يحترم حدود تلك الضيافة، إلى أن يُحدِث اللّه بعد ذلك أمراً، تلك الفكرة نمت في رأس سالم العاطف وتجذرت، وبدأ في ضوئها يرسم خرائط تحدد مساراته المُقبلة في التعايش، الأمر الذي قبله راضياً ولعله سعى لأن تكون تلك هي خطته المُعدة لذلك القادم المجهول.

عسلُ الوطن وعروسُ الغُربة

منتصف الستينات من القرن العشرين

قُرب الضالع – جنوب شبه الجزيرة العربية

لأن تحيا في وطن جديد وبثياب رجل مُختلف، فإن عليك أن تخلع عباءة الماضي وأن تُرديه قتيلاً، لأنك حينها عندما تراه غارقاً في دمائه غير قادر على الوقوف ستدرك أنك أحسنت الاختيار وأنك مُنحت شهادة تواجد مُستحقة على أرض حقيقية تليق بك.

لذا قرر أبي (سالم العاطف) في هذا العام زيارة وطنه (قريته الناعسه فوق الغمام)، زيارةً أراد لها أن تكون طويلة، كان يرقبُ أن تُمكنه تلك الرحلة من خلع عباءة الذاكرة التي تُثقل كاهله وتمنحه القُدرة على بناء عالم جديد يليق بروحه التواقة للجنون. كانت الأخبار التي تصله من هناك لا تشي بأي خير، البلاد تُعاني فوضى وظلال التخبط السياسي الواضح في ظل الرئيس الجديد تتبدى سافرةً في الأفق البعيد، والأوضاع الاقتصادية تشهدُ حالة من التردي المُزري، فإغلاق قناة السويس إثر حرب يونيو 67، دفع الكثير من أهالي القرية والقُرى المُحيطة للمُغادرة بحثاً عن مساحات تنفس

أُخرى، وعن فُرص عمل في بلدان قريبة تناثرت من حولهم، بلدان بدأت تشقُّ طريقها نحو النهضة.

وكذلك فعل أصحاب رؤوس الأموال ممّن قرروا الرحيل بما يملكون صوب وجهات تبدو أكثر أماناً وأكثر قابلية للحياة. حاجة الوطن التي تلاحمت مع حاجة أمه، وكل تلك الأسباب وما رافقها من قصص حول الأوضاع والعباد دفعته لعقد العزم على زيارة قريته في هذا التوقيت تحديداً، وقبلها كان شعوره بالكثير من الحنين إلى حيث جذوره، كما كان يجتاحه الشوق غير المفهوم لوالدته، شوقٌ لم يجد له تأويلاً، فرغم حلاوة الاستقرار الذي بدأ يعتاد طعمه في هذا المكان الجديد، إلا أنه اكتشف مُتأخراً أنه طعم لم يُنسِه نكهة الوطن، رائحة الأم.

بالتزامن مع ذلك فقد حدث شيء مدوٍّ على مستوى أسرته الكبيرة أسرة العاطف، سلاطين القرية الكبار، الذين أسقطت من يدهم هذه السطوة، فقد فقدَ السلاطين ملكهم الذي اعتادوه، باتوا بلا سلطنة، جُردوا من لقبهم، كما انتُزعت منهم ملكية جزء كبير من الأراضي الزراعية والمُمتلكات التي كانت تقع تحت سلطتهم.

سقطت السلطنة إذاً لتبزغ الجمهورية الجديدة بنظامها الاشتراكي وحزبها الأوحد الموحد، وما جرّته معها من تفاصيل وأمور أُسقطت على أبنائها، لذا كان لا بد أن يكون سالم حاضراً، في موقف كبير كهذا، وأن يكون شاهداً على ما حدث ويحدُث مع مسقط قلبه الأول، وهو ما كان فعلاً.

في زيارته الأولى لوطنه بعد فترة الانقطاع الطويلة التي قضاها مُرتحلاً في تلك الفضاءات الجديدة عاد إلى هناك، إلى أمه ليجدها

وقد عادت من جديد أكثر رسوخاً وألقاً، فسرعان ما خلعت عنها ثياب المرأة المقهورة المهجورة التي أهملها زوجها لصالح عروس جديدة تصغرها بأعوام، هذا الزوج الذي كانت على استعداد تام للتخلي عن كل شيء وكل شخص للارتباط به.

وجدها لا تزال صالحة التي يعرفها، صاحبة المنزل الكبير والتجارة الرائجة وحقول البُن التي زحف على أطرافها التجفاف والرماد، وجدها تقف بشموخ وصبر وحضور جدير بالإعجاب، لا غرابة فهكذا كانت والدته دوماً تُقارب الوطن، تلتصق به، تتقاسم معه تفاصيل الحياة وامتدادات الغربة ومُفردات النبذ والعراء، نعم ازدادت هزالاً وضعفاً حتى إنها استعاضت عن المرخ(*) الذي كانت تُلطخ به وجهها استجلاباً للون يغيب عنه بحزن مهول له لون الوحدة وتجلياتها، إلا أن وجوده المُنتظر أزاح الكثير من الحزن الراقد على وجهها وجسدها، فمعه استعادت روحها المُنطلقة وعادت لتُصبح صالحة التي يعرفها الجميع، المرأة القوية التي يهابها أعتى الرجال وأقواهم.

كان لحضوره فعل السحر وكأنها استمدت قوة خيالية مكَّنتها من إعادة صوغ الواقع الذي تعيشه ليصبح قابلا للتقبل والحياة. في زيارته تلك حاول إقناعها بجهد بأن ترافقه إلى الأرض الجديدة الواعدة مُستعيناً بكل سبل الإقناع، حدّثها عن وضعه المادي المُمتاز وعن الحياة الهادئة المُستقرة، وعن ذلك الوطن الجديد الباعث على الأمل

(*) المرخ: شجرٌ طيب الرائحة ينمو في شمال مكة المكرمة وصولاً إلى اليمن، ينتج زهوراً صفراء اللون تستخدمها النساء للزينة. (المصدر: ويكيبيديا بتصرّف)

والحُلم، لكنه عبثاً كان يفعل؛ فأمه كالجبال التي تحوطهم راسخةً رسوخاً مهيباً رافضةً الانزياح إلا بفعل قوى لاإرادية قد تُجبرها على السقوط.

اغتنم أبي هذه الرحلة ليغترف من ذاكرته كل ما هو جميل، وأن يُخزنه لوقت حاجة قد تطرأ له وهو في غُربته الإرادية، زار جبل حرير(*)، وقف على طرفه، تأمل القرية التي تنداح أمامه، استعاد إحساسه حينما كان ينظرُ إلى الأفق باحثاً عن فضاء جديد يُشرع أمامه فُرص حياة مجهولة، سار في الأزقة المُتربة... اغترف من الينابيع الحُلوة الباردة، حاول ما استطاع أن يُرسخ في وجدانه هذه القرية التي بقيت، رغم ما أحدثته في روحه من صدوع وأحزان، الملاذَ والمأوى... الذي لم يُدرك كم يحن إليه ويُحبه إلا حينما استحال بعيداً عنه.

ولعل ما ضاعف من إحساسه المُرّ هو الوضعُ السياسي المزعج الذي عاشته البلاد آنذاك، وما مُورِس ضده كسائر أبناء مُجتمعه الصغير من تعسف وأفعال لا تُفهم ولا تُبرر، كان النظام يُحاولُ دفع المجتمع صوب التخلي عن كل ما يُشكل وحدة ما أو عودة إلى جذور واحدة، فقد أُجبِر الأهالي على إلغاء اللقب الأخير الذي يُذيل

(*) جبل حرير: هو أكبر جبال الضالع، يقع في الجزء الشرقي من محافظة الضالع وهو عبارة عن سلسلة جبلية تمتد من نقيل (المعدي) سيت جنوباً وحتى ظاهرة العطري شمالاً وتتفرع منه جبال صغيرة وكتل صخرية ووديان وشعاب وهاويات عميقة إلى الجهة الغربية والشرقية وعلى قمة جبل حرير توجد مساحة مسطحة بنيت عليها القرى وشيدت المساكن وفي أعلى قممه تقع قرية الفقهاء وهي إحدى أكبر القرى وأقدمها في جبل حرير (المصدر: ويكيبيديا بتصرّف).

اسم كل من ينتمي إلى قبيلة أو عائلة، كمحاولة لتفكيك وحدة المُجتمعات القروية بتمزيق أساس مُهم تقوم عليه وهو الانتماء.

هذا الانهمار المُمتع الذي يشعُّ من عيني والدي وهو يروي قصصه الملونة بالاستعادة والفقد والذي يبدو جلياً فاضحاً؛ فكثيراً ما كان يروي لنا عن والدته وعن مدينته وعن كل تلك التفاصيل وصوته يبرقُ بالتذكُّر.

وفي هذه الزيارة الحدث أصرّت أمه على أن تُزوجه بابنة خاله، الصبية الصغرى جنة، الشابة الجميلة التي لم تكُن سوى أمي، طفلة الأربعة عشر عاماً، كانت تلك العروس الشابة التي تحدثت عنها جدتي وهي تُقنعُ أبي بأن يلتقطها عروساً لوحدته وأنيساً لبيته، كانت طفلة بمقاييس ذاك الزمان وهذا، لكنها كانت امرأة وفق أعراف القرية ورؤية أهلها وشابة مُكتملة لا ينقُصها شيء.

واقتناعاً من سالم بأنه ما من شيء ينقُص بيته ووحدته إلا زوجة يأتي بها من هُناك، تنتمي إلى القرية بأعرافها وأفكارها، لذا فقد شارك راضياً في مشروع الاختطاف هذا على أن يعقد قرانه عليها ثم يتركها في ظلال بيتهم تلعب مع أبناء الجوار ريثما تستقر له الأمور ويهيئ منزل الزوجية بما يليق بعروسه الصغيرة هناك فيعود لأخذها معه.

ولعله كان يقول هذه الحجة فقط، حتى يترك الفرصة لهذه الطفلة لأن تكبر وتبلغ سناً تسمح لها بأن تُصبح زوجة وصاحبة منزل وأمّاً لأطفال، كما أنه أراد أن يعود للمدينة على أن يرجع إلى قريته وهو يحمل وثيقة الانتماء إلى الوطن الجديد، تلك الوثيقة التي تهون عليه الكثير وتختصر عليه الوقت والمسافات، الوثيقة التي لم تأتِه بعد، لكنه كان يمتلك رهان الواثق المُنتظر لشيء سيأتي حتماً.

بعد سنوات قليلة عاد إلى قريته ليحمل عروسه التي أصبحت شابة جميلة تليق برجل مثله بعد أن أقام حفل الزفاف في القرية الشاهدة على ماضيهم والحاضنة لحاضرهم المُمتد.

تلك الليلة توَّج فرح أمه الذي غاب عنها طويلاً جداً، فرحت وهي تشعر أنها اطمأنت أن ابنها قد استقر أخيراً مع عروس تستحقه.

حفل صغير بهيج مُحاط بالأقربين، عُرسٌ برع(*) فيه الجميع، أبناء الحي، الأقرباء، أبناء العمومة، وأبناء القرى المُجاورة، كان ابتهاجاً استحقته جدتي بعد سنوات من القهر المُدجج بالألم. طيفُ ابتسامة يسقطُ على وجه أبي وهو يروي تلك القصص.

لم يدم احتفال أبي سوى ستة أسابيع عاد بعدها تاركاً عروسه حُبلى بأول أبنائه، واعداً إياها بالعودة لأخذها إلى هناك بعدما تستقر له الأمور وتروق له الأحوال، كانت تلك حجة أخرى فهو لم يُرد أن يتحمل باكراً همَّ هذه الزوجة الصغيرة التي لم تختبر حياة المدينة المُزدحمة بتفاصيلها الكثيرة المُتكاثفة، كما أنها فُرصة له لأن تأتيه أخيراً تلك الورقة بمحض القدر الجميل.

هكذا إذاً غادر سالم وطناً يتشرب حبه وتسكن أطيافه في ملامحه راحلاً صوب وطن يرتجي منه قُرباً موثقاً مُستحقاً وفي داخله تتناسل الأسئلة حول جدوى الأوراق في حين أن معيار الوطن هو الانتماء إليه، لذا فهو المُستحق الأول لهذا الوطن ولا أحد سواه.

(*) البرع: رقصة شعبية جماعية يؤديها الرجال في الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية عادة، وتُجسدُ هذه الرقصة فنونَ استخدام السلاح. (المصدر: ويكيبيديا بتصرّف).

وطنٌ جديدٌ لأمي

مطلع السبعينات من القرن العشرين
مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

بمرور الوقت كانت تلك الورقة المُنتظرة تفقد قيمتها، فما تحمله أو ما ستقدمه لا يُغري سالم بالنضال من أجلها، لتأتِ إذاً وقتما تشاء، وأينما تشاء أن تأتي، لا فرق فوالدي يشعر أنه ابن هذه الأرض وغرسها الذي أينع وأثمر حُباً وانتماء وولاء لا يتكرر.

في ذلك العام جاء أبي بزوجته إلى مدينته الجديدة، قرر أخيراً أن تجيء ابنة خاله جنة إلى وطنه، أن يتركز وجوده الإنساني في هذه البقعة الجغرافية، جاءت أمي إلى مرفئنا إذاً، إلى بيتنا الذي لا نعرفُ سواه، «جنّة» التي فارقت الطفولة باكراً لتنغرس في هذه الأرض الجديدة، نخلة مُثمرة وأماً لطفلين قيس وسناء، بينما كانت أختي جواهر لا تزال جنينا في طور التخلُق في أحشاء أمي.

جنّة تلك الوافدة إلى عالمها الجديد والخارجة توا من رحم قريتها المُتعلقة على كتف جبل أخضر في أقاصي الجزيرة العربية إلى مدينة غريبة عليها لم تتخيل يوماً أن تُقيم فيها، مدينة مشغولة بالحر ومُطرزة بالوحدة ومشحونة بالغبار والصهد.

استعداداً لاستقبال أسرته الصغيرة، غادر سالم منزله المتواضع ليستأجر شقة صغيرة في إحدى المناطق السكنية المُحتشدة بالوافدين الجُدد إلى هذه المدينة الصغيرة، شقة كانت لآخرين من قبل بجدران وسقوف مُزدحمة بروائحهم وذكرياتهم. أتذكر أمي وهي تحكي لي كيف أنها أنفقت أياماً طويلة وهي تحاول نفض الذاكرة المُشتبكة لهذا المكان حتى تستطيع اقتحامه وسُكناه لتبني حياة جذلة على أنقاض تلك الروائح، ذاكرة جديدة تليق بأسرتها الصغيرة.

ولأن أمي تنتمي إلى تلك النساء اللواتي ولدن ليمنحن الآخرين مُبررات الحياة وفُرص الوجود فقد استطاعت تطويع روحها القروية سريعاً لتنساب مع إيقاع المدينة الجديدة، فسرعان ما اتقنت مُفردات الحياة فيها وسايرت متطلباتها وكأنها ولدت هنا.. في حين أن سالم كان يتعامل معها بوصفها كائناً جاء ليملأ مقعداً شاغراً في حياته التي لا ينقصها سوى من يقوم بهذا الدور.. لم يشعر يوماً أنها زوجة يكنّ لها مشاعر أو حباً من أي نوع... هي امرأة تصلح له لا أكثر ولا يرى أن في الأمر ما يستحق المزيد من الوصوف.

وكخيطٍ رفيعٍ من شوق يربط سالم بقريته فقد حرِص على أن تقوم جنة بزيارات إلى هناك، زيارات متواصلة مستمرة لم تنقطع لتلك القرية الصغيرة، حزم فيها سالم حقائب غربته المُفتعله في كل صيف ثقيل مُختنق في هذه المدينة التي تُشرف على البحر وتحتضنها الصحراء راحلاً صوب الجنوب البعيد.

في رحلاته تلك كان يقوم بتجهيز سيارته البوكس البيضاء الصغيرة، موثقاً الحبال من حول تلك الأجهزة الحديثة الراسية على ظهر عربته، جنباً إلى جنب مع تلك الحاجيات الوافدة من البعيد تلك

الأشياء الثمينة الغالية المتشبثة بسقف العربة في تلك السلة المعدنية التي تختصر الحضارة التي لم تعرفها القرية بعد مُيمّماً إلى هناك في زيارات إنسانية عامرة بالبهيج.

هو ذكاء ذلك القروي الذي يُدرك أن من لا ينتمي إلى أصل وجذور هو حقاً شجرة مآلها السقوط السريع لا محالة.

باحةُ القيظ

بدايات السبعينات من القرن العشرين

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

الحياة الهادئة المُستقرة التي تُقارب الكمال كانت في أوج حضورها، الرضا عن وضعه وما يحوطه هو كان ما يستشعره سالم، فأطوار العمل التي تسير به نحو الأفضل تبعث في نفسه رضا وهدوءاً إنسانياً رفيعاً في حين لم يُنسِه هذا الرضا المتطاول يوماً انتمائه إلى حيثُ الجذور. . . إلى حيثُ أسرة سالم العاطف الكبيرة بأصلها العريق ونسبها الذي يُفاخر به الجميع وإن تقلصت مُمتلكات العائلة وتشتت شملُ أبنائها لأن فروع العائلة تدرك تماماً أن ما تبقّى لهم هو أهم وأثمن من أن يُشترى بالمال.

وكنتيجة لتحسن وضع والدي المالي في الوطن، لم تطُل إقامة جنَّة في منزلها الأول طويلاً، ذاك المسكن المُعلق في جوف بناء بُنّي أصم يحتل زاوية مواجهة للبحر، والذي تُسرب نوافذه المُخلخلة هواءً مالحاً مُشبعاً بالرطوبة، فمع البواكير الأولى لحلول الصيف المُحتدم قرر سالم ترك ذاك البيت الصغير ليُسكن أسرته منزلاً جديداً يخصهم، منزلاً يُشبههم.

آنذاك كانت المرة الأولى لِجنَّة في اختبار قيظ هذه المدينة التي يطوقها الحر من كل صوب ويطبقُ على أنفاس ساكنيها، لتتعرف هذه القروية الصغيرة أخيراً على الصيف اللاهب المُمتد في فضاءات الأفق والمُنداح في سواحل المدينة المُتسعة، الصيف الذي سمعت عنه كثيراً قُبيل مجيئها إلى هنا، والذي تلقفته في أحاديث القريبات والصديقات في قريتهم الناضحة بالهواء العليل، لتواجه واقع القيظ فوق تلك الأرض للمرة الأولى لتتفوق التجربة على قساوة الوصف بمراحل عديدة، كيف لا يفاجئها الواقع وهي من نمت وشبت وتلمست معالم الحياة الأولى في قرية صغيرة مُحاصرة بالاخضرار وتتفتق أراضيها بمياه حُلوة باردة.

كانت تلك التجربة مع ما حملته من معاناة طارئة لم تعرفها سابقاً ومع كل ما رافقها من تعب وإعياء صاحَبا هذا القيظ الذي تمدَّد واستشرى في هواء المكان مع تلك الأوزاع التي كانت تباغت جنَّة زاحفةً على جُدران منزلها نهاراً أو مُتسللةً من تحت أعقاب الأبواب الموصدة كشأن تلك الصراصير المُرعبة التي ألفت وجودها الصيفي سارحةً في الممرات الداخلية لبيتها الصغير ليلاً.

رغم كل ذلك فقد أحبّت جنة عُشّها الجديد، هذا المنزل المتواضع المبني على شرف أسرتها الصغيرة، وتآلفت مع تفاصيل قيظه وترابه حدود الامتزاج والتوحد مُتناسية كل المتاعب التي تحوطها.

كانت علاقاتها محدودة في إطار أبناء القرية ممّن جمعتها بهم الأقدار فوق هذه الأرض البازغة أو مع جيران التصق جدارهم السميك بجدار منزلنا، لتتبادل معهم أطباق الهريس والثريد

والمندي... وحكايات الضالع المروية عبر أفواه النساء والأطفال...

كان منزلنا بغرفه الصغيرة المُتجاورة وصالته المُربعة بزواياها الحادة مسرحاً لأفراح وأتراح وحكايا تندسُّ في أطر النوافذ، وبمطبخه الحميمي الجميل وبباحته الشاسعة التي تطوق هذا البناء الصغير وبطلائه الأبيض الناصع، أخذ شكلاً مُغايراً لمنزلنا الأول القاتم وصورة مُقاربة حدود التطابق لمنزل القرية، صورة اقتلعها أبي من هناك لتحط في قلب المدينة هاهنا.

في تلك الأثناء كان عمل والدي ينمو ويُبرعم، ليرتقي سريعاً سلم الوظيفة باقتدار ويضاعف دخله على نحو باغته وزاده فرحاً وابتهاجاً، وبموازاة ذلك تكاثرت الالتزامات والمهام تكاثرا أسعده وأشعره بالكثير من النشوة والأهمية التي ارتحل طويلاً باحثاً عنها.

ترسّخ وجودنا إذاً على هذه الأرض المُهتزة يوماً تلو الآخر، وإن لم نحصل بعد على أوراق تهبنا شرعية مُنتظرة، وثائق تُمني النفس بأنها قاب انتظار قصير لا أكثر، نقفُ على هذا التراب نناور الثبات ونحن نتشبثُ بوطن وهبنا احتضاناً حلواً فلم نعُد نعرف له بديلاً، في المقابل كانت أحوال الوطن الأصل تسير نحو الأسوأ؛ فأوضاع العائلة في القرية وجوارها من مُدن وأصقاع كما تصلنا عبر طيات الورق وعبر أسلاك مُعلقة من شتات، لم تكن على ما يرام بفعل النزاع المُسلح الناشب على أطراف البلاد في الوطن المُمزق بين جزءين؛ حيثُ آلت كل الأمور صوب الأسوأ اقتصادياً، الجميع يعاني، حتى أولئك الميسورون ذوو الأوضاع الاقتصادية المُستقرة باتوا جميعاً على تماس مُخيف مع احتمالات العوز كما هي الحال مع أسرة العاطف.

في حين أننا هُنا في وطننا الجميل الصغير المتواري كنا نحيا تحت سقوف وارفة من أمن وبهاء يزداد جلواً وإزهاراً بمرور الوقت والزمن.

زهو وفرح عكّرهما ما حدث في ذلك المساء القاتم حيث الصيف يوشك على الرحيل، وكنا نُشرع نوافذ المجلس الرجالي الصغير الذي يسكن الزاوية الجنوبية من منزلنا الجديد لتسرب لنا نسمات ليلية ناعسة، حين دخل جارنا عبد الله وفي عينيه شلال فرح مُنهمر سرعان ما انسكب على كل شيء، حاملاً في يده ورقة تؤكد انتماءه إلى هذا الوطن، شبح انكسار رمادي لاح على وجه أبي سرعان ما أزاحه ليقول له بصدق صقيل:

- **بالمبارك يا بو عبد العزيز.. والله إنك تستاهل.**

هنأه أبي بصدق يليقُ بالرجال، رغم أحلامه بأن يحصل على مثل تلك الأوراق المُبهرة، ورغم إداركه ويقينه باستحقاقه لنيل هذا الشرف من الوطن الذي يأبى أن يمنحنا الصك الذي يسهل دروب الولوج إلى عوالم وأمكنة تخص أبناءه وحدهم ولا يمكننا نحن اقتحامها مهما اجتهدنا واستعنا بكل الإمكانيات المُتاحة التي لا تُغني أبداً عن امتلاك تلك الورقة السحرية.

ومنذ ذلك الوقت وسالم العاطف يبذل ما استطاع ويحتال على كل ما يكون حتى يطرق أبواب الحصول على الورقة الذهبية التي لم تأتِ أبداً.

منزل جديد.. وأسرة تكتمل..

منتصف السبعينات من القرن العشرين

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

في هذا العام جئت أنا إلى لدنيا، **عُمر**، آخر عنقود العائلة الكبيرة، رابع أبناء سالم العاطف، وفي العام ذاته مُنحت بطاقة تعارفي الأولى مع وطني الذي يُنكرني ولم أعرف سواه.

لم يكن مر على انتقال عائلتي من منزلها الصغير المُعلق على كتف ذاك المبنى البُني إلى هذا القصر ذي الطابق الواحد والأربع غرف أكثر من ثلاثة أعوام، أعوام قصار، لكنها كانت كفيلة بأن تُرتب شكل الحياة وتفاصيلها في عوالم أمي تحديداً.

هذا المنزل الحُلم الذي يخصنا وحدنا كان قد اشتراه أبي بماله الخاص، إلا أنه أبرم عقود ملكيته باسم عمي عبد الله النازح بعدنا والمُنتمي إلى هذا الوطن بجواز سفر يؤكد انتماءً مُكتسباً ومُستحقاً، فجوة كبرى بدأت تفصل أصدقاء الأمس، متاهة من أفضليات تشطر المُمكنات إلى أنصاف غير مُتساوية.

فتلك الوثيقة لم تمنح عمي عبد الله أحقية التملك والشراء في

هذا الوطن وحسب، إنما منحته صدارة الحصول على كل الأشياء من المراتب الوظيفية التي ما كانت مُتاحة يوماً، إلى فرص التحاق أبنائه بصفوف المدارس المُخصصة للمواطنين، حتى إنه انتقل من حيّنا الصغير إلى منطقة نموذجية جديدة، صدمة حصوله على جواز الانتماء إلى هذه البُقعة أوجعت أبي وسببت له ردة فعل مُضاعفة، لكنه وبصلابة القروي الذي يأبى أن تكسره الحياة، سرعان ما ابتلعها وهو موقن أن ورقة حظه باتت أقرب من التوقع.

حوشٌ مُرقش

بدايات الثمانينات من القرن العشرين

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غرب آسيا

حياتنا بدت لي طبيعية وإن أجبرت على استعادة تفاصيلها في رأسي سأوكد حقيقة كونها طبيعية حقيقية لا ينقصها شيء كنت مثل كل الأولاد وكان بيتنا ككل البيوت التي اراها لا ينقصه شيء، ولعل الطفولة هي ما تخلق فينا جهلاً حميداً وظنوناً طيبة تبدد عتمة الظلم والفرقة التي تغتال طهر الاعتقاد بأن الحياة كاملة وكل ما حولنا هو منطقي مقبول. . .

ولعلّنا نحتاج إلى زمن مادي مُهدر لإدراك واقع الاختلاف ومنطق الحكم على كل الاشياء.

ففي تلك المرحلة كانت الحياة تنهمر بقدر كبير من الفرح. . . مصدره الأساسي إحساسنا بالإنصاف والعدل، كانت وقائع الأيام وتفاصيلها تثبت لي كل تلك الأمور. . .

بفضل هذا البيت المنسوب للآخرين أصبحنا نمتلك تلك الباحة الصغيرة المفروشة ببلاطها المُرقش، الذي تلسعُنا برودته في الشتاءات الخاطفة وتكوينا حرارته في النهارات الصيفية الطويلة، كنا

بفضل هذا الزيح الصلب المُمتد نستلذُّ بالحدث الأسبوعي البهيج حيث تسكبُ أمي أطنان المياه المُعبأة في سطول صغيرة حمراء وخضراء لنمارس نحن استحمامنا المُدَّعى في تلك الباحة، ما يُثير غضب والدي سالم العاطف حسرةً على المياه المُنسكبة دون وجه داع أو أهمية، نسيتُ أن أقول لكم إن سالم العاطف توغل فيه الشيء الكثير من البخل والحرص على كل ما هو مادي أو شعوريّ، حتى أحجار البطاريات التي نستخدمها لتشغيل جهاز راديو صغير تضعه أمي في زاوية مطبخها المُنكمش لتلتقط فيه صوت الوطن عبر أغنيات تأتي من هناك، كان ينزعج إن فرغت إحداها مُطالباً بالحد من إنفاق وإهدار تلك الثروة المُهمة مُحاولاً ما استطاع إعادة تشغيلها أو شحنها لتعمل مرة أخرى.

جهاز الراديو الأسود المُشترك الذي كثيراً ما ضبطتني أمي مُتلبساً بجُرم العبث في أزراره كان يغمرني بوخز لذيذ مُحبب، إذا ما انداح صوت أيوب طارش(*) بين موجات أثيره العذب.

أتذكر جيداً ذاك الصبح الغُر المُشمس حينما افترشت أمي الباحة تعبث بطبق معدني تحمله تتناثر فيه حبات الأرز، مُستعينة بضوء النهار الكاسح لاكتشاف تلك السوسات المُندسة، بينما سناء وجواهر تنظفان الأقفاص المعدنية العملاقة التي تحتل زاوية الحوش الغربية بدجاجاتها الست وديكها اليتيم، تلك الأقفاص التي يستمد منها سالم

(*) أيوب طارش: فنّان، وملحن، وعازف، وموسيقار يمني شهير، ولد عام 1942م، عُرف بأغانيه العاطفية والوطنية، وهو مُلحّن النشيد الوطني للجمهورية اليمنية منذ وحدتها عام 1990 حتى اليوم. (المصدر: ويكيبيديا).

قرويته، ويُعيد تذكير نفسه ببعض تفاصيلها كي لا ترحل فلا تعود له أبداً، أتذكر تلك الباحة المفتوحة على السماء والبلاط النظيف الذي يُصدر الصهد وصوت الراديو صادحاً بأغنية أيوب طارش:

صباح الخير صباحك خير دائم
صباح الخير صباحك ورد باسم
صباح الخير خذ قلبي المسالم
صباح الطل في خدك لآلي
صباح الخال فوق الخد حالي
صباك الفجر نبهني دعالي

التقطتُ حينها جهاز الراديو واحتضنتُه، لأرفع صوت الأغنية إلى مُنتهاه وكأنني كنت أعي ما يقول، بينما تتبادل سناء وأمي الابتسامات ذات المغزى؛ كانتا تستشعران تلك العلاقة الغريبة التي تربطني بأيوب طارش، العلاقة المُثيرة للعجب والإعجاب.

صباح الخير يا جنة فؤادي
صباح الخير يا كل الودادي
أشاور طرفها قبل الأيادي

نعم كانت حياة بفصول مُكتملة أو هذا ما بدا لذلك الطفل الذي كُنته، حياة في قادمها كانت تكمن مُفارقة الوجود وجدلية الانصاف...

كان لا بد من المرور بمرحلة إدراك أن الحياة هي ليست كما يرسمها لك عقلك الصغير وذاك ما حدث فعلياً.

أُولى المآلات

بدايات الثمانينات من القرن العشرين

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية - جنوب غربي آسيا - مدرسة حكومية صغيرة

وجاءت تلك المرحلة... إنها التجربة الفصل والمُفترق الذي غير ترتيب الاشياء في رأس ذلك الصغير الذي كُنته، إنها أولى مراحل اكتشاف الوجود واختبارات القدر، في هذه السنة أنا أنتمي إلى المدرسة أخيراً، طالب للمرة الأولى في المدرسة الابتدائية، هاهو الحُلم المدرسي الذي تأخر عامين يجيء، مدرستي الابتدائية، الصف أولى ثاني، المقعد الدراسي الذي أتعرف عليه للمرة الأولى، أول عتبات التعليم النظامي الذي أنتسب له بعد انتظار أزعجني.

فقد لفظتني المدارس الأولية التي ينتسب لها الأطفال عادة، فالمدارس التابعة للحكومة كانت قاصرة على أبناء المواطنين ولا يُتاح التعليم ما قبل الابتدائي إلا وفق رسوم مُرتفعة، لذا ارتأى أبي الاستغناء عن هذا التعليم والاكتفاء بالتعليم النظامي الذي يبدأ من المرحلة الابتدائية.

كنت أشعرُ بالكثير من النشوة وأنا أحتضن حقيبتي السوداء

وأرتدي ثوبي الأبيض الجديد، كان زميل المقعد المُجاور سيف ابن جارنا الأقرب وصديق طفولتي الذي لازمني للأعوام والمراحل التي تلت هذه.

بالتحاقي بالمدرسة اكتشفت الفارق الذي يفصلُني عن الآخرين، تلمست ذاك الحاجز الملعون الذي يفصل المواطنين عنا نحن الوافدين، ذاك أيضاً كان عالماً جديداً انفتح عليَّ ليجعلني أضع نفسي في خانة تختلف عن خانة الآخرين، إنها بتعبير آخر كانت اختبار الوجود الأولي، الحاجز غير المرئي من فروقات تفصلنا وتقسمُنا إلى عالمين مُختلفين.

كنا نمثل مجموعة متنوعة من الأصدقاء؛ فبحكم محدودية عدد المدارس آنذاك وانتساب الجميع للمدارس نفسها فقد اضطررنا لأن نصنف أنفسنا في مجاميع كتلك، أقساماً يفرضها الواقع وترسخها طبيعة الحياة الجائرة، قسماً يضم الوافدين وقسماً آخر يضمُّ أصحاب الصكوك الذهبية، وتبعاً لتلك التصنيفات القاسية كنت ضمن مجموعة الأصدقاء القادمين من قريتي وما جاورها إلى جانب وافدين من بلاد الشام ومصر، كُنا نتشارك في كل ما يتعلق بالدراسة وبالواجبات وحتى بالألعاب المسروقة خارج خارطة المدرسة، انقسام فرضه واقع جديد كان عليّ تقبّله.

الغريب أن اختبار الأفضليات وتبَدي الفواصل لم يحل دون إحساسي بالعدل... ورغم إدراكي الطفولي الغض لهذا التصنيف اللاإرادي، كُنتُ أشعرُ بالرضا والسعادة بتلك الحياة غير المُنصفة، فلم أشعر حينها أنني في مرتبة أدنى أو أنني لا أنتمي إلى هذا الوطن، ربما لأن الطفولة كانت تمنحنا حينها قدراً من الصفاء يجعلنا ننظر إلى الأمور بالكثير من حُسن النوايا.

نهارات الدراسة الطويلة المُرهقة كانت أحد بواعث السعادة، رغم ما يعمُرها من تعبٍ وشقاء وإرهاق يتبدى جلياً في أجسادنا ووجوهنا.

في رحلة العودة إلى المنزل يقلّنا الباص الضيق، يُسقطنا تباعاً في أحيائنا المُتوالية، قيس أخي الأكبر وزميل المدرسة ذاتها لم يكن مُحباً للدراسة؛ لذا فقد أعاد السنوات الدراسية أكثر من مرة، كان يقضي جُل وقته صحبة مجموعة مُعينة من الرفاق لا يُفارقهم، إلا أننا كُنا نجتمع أنا وهو وهم في طريق العودة عبر ذلك الباص المشحون بالطفولة.

منزلنا الذي كان قصراً في أعيننا منزل واطئ صغير من دور واحد وأربع غرف وصالة كبيرة ومجلس للرجال، أما المكان الأحب والأقرب لنا فيه فقد كان مطبخنا الذي حولناه إلى غرفة للجلوس بعدما أضفنا إليه جهاز التلفاز الصغير وقطع السجاد الملونة والأرائك الناعمة التي تناثرت في مداه الضيق، في النهار كُنا نُشاهد أفلام الكرتون التي نهواها بشغف، كابتن ماجد وفلونة، تلك التي تُذاع خلال فترة العصر بعدما نفرغ من إنجاز واجباتنا المدرسية.

أما مساءاتنا المُتكاثرة هناك فقد كُنا نقضيها في ظلال هذا المجلس الحميمي الصغير بعدما نفرغ أنا وقيس من لعب أشواط كرة القدم المُراوغة لنتحلق حول أطباق الفول والشكشوكة ونستلذُّ بأرغفة اللحوح(*) الطرية وهي تأتينا ساخنة مُتقنة كما تجيدها أختي سناء، نجتمع لنروي بعضنا لبعض حكايات النهار الطويل المُحتشد

(*) اللحوح: من الأطباق الشعبية المعروفة في شبه الجزيرة العربية تحديداً اليمن، وهي عبارة عن أقراص من الخبز الخفيف الذي يتناول عادة مع السمن أو العسل أو الجبنة. (المصدر: ويكيبيديا بتصرف).

بالشخوص وبالقصص الحقيقية والمُتخيلة، وكثيراً ما كان حاضراً صوت أيوب طارش في تلك الأماسي الإنسانية الحالمة.

أما نهايات الأسبوع فقد كانت تبدو لي آنذاك مُمتدة لأزمنة تكفل لنا المُتعة وطويلة إلى حد البهجة، حدّ يسمح لنا باقتناص الفرح حتى أقصاه وبتلقي الاستمتاع حتى نهايته، لا كنهايات الأسبوع هذه الأيام تلك التي باتت تأتي مُقتضبة وخاطفة إلى حدود اللُّهاث.

كُنا حينها نقضي تلك العطلات الصغيرة في الحديقة المُشرفة على الساحل، لتهب لنا في الصيف الموغل في اختناقه أنساماً باردة ننتظرها بلهف، أو في حدائق أخرى مُجاورة لحيّنا والتي تزدحم عادة بأمثالنا، وفي بعض الأصياف الطويلة كنا نجتمع مع أقاربنا لنفترش الساحات الخضراء المُشرفة على الكورنيش المفتوح على البحر، نحوك المساءات هناك لعباً ولهواً ومن حولنا تتناثر ترامس الكرك اللذيذ وأقراص بنت الصحن(*) التي تُمتعنا بها سناء بوصفها الطاهية الأمهر بين نساء العائلة الثلاث، أما الشتاء القصير فكانت بعض نهاراته القصيرة نقضيها هناك في ذلك البر حيث نقوم برحلات لاصطياد الفقع في تلك الصحراء المترامية والتي تنفرج شقوقها عن هذه الثمار الإلهية الزكية، رحلات جماعية رفقة عائلتنا الصغيرة وعوائل أصدقاء أبي، كانت أياماً سعيدة جداً، استشعرت فيها بصدق، معنى أن تكون لك عائلة وأن تتفيأ ظلال أسرة، وأن يكون معك ومن حولك إخوة وأخوات تتحلق معهم حول طبق بسيط أو فنجان شاي كرك طافح برائحة الهال والاشتياق.

(*) بنت الصحن: واحدة من أشهر المخبوزات اليمنية حلوة المذاق التي تتناول عادة مع الشاي أو القهوة. (المصدر: ويكيبيديا بتصرف).

يحدثُ في قريتنا

منتصف الثمانينات من القرن العشرين

ناحية الصحراء

كان الوطن في عين الطفل الذي كُنته مفهوماً طارئاً، شيئاً جديداً لم يعرف تشكُّلاً واضحاً في ذهنه، فهذا الطفل الذي لم يعرف بعد معالم واضحة لذلك الكيان الذي كان يحيا فيه، بينما كان الجميع يُصرُّ على إعادة تذكيره بأنه من هناك وأنه جزءٌ أصيل مُنتمٍ إلى قريته الصغيرة، كانت تلتصق جذوري بتلك البقعة العميقه الملاصقة للجبال والمجاوره للهضاب والغيوم بقرب وشدة مزعجة، كان عليَّ أن أعيد تشكيل هذا المفهوم في رأسي حتى أُتقن مهارات التعامل مع واقعي، الوطن هو ذلك المكان الذي يسكنه الإنسان ويقيم فيه، إذاً وفق ذلك فأنا ابن هذا الوطن لا محالة فلم أعرف وطناً آخر سوى ما أحيا في ظلاله اليوم أم أن الوطن هو مسقط رأس الإنسان وإليه يعود تاريخ آبائه وأجداده، فإن كان كذلك فأنا ابن القرية لا ابن هذا الوطن، معان عديدة تحملها هذا الكلمة الصغيرة، وبحكم هذا الواقع المزدحم بالمعاني والصور كُنتُ أمتلك أكثر من وطن واحد بخلاف الآخرين.

في ذلك الصباح كان والدي يُحكم وثق الحبال على مُحيط الأشياء المُعلقة في سقف سيارته السوبربان الجديدة التي اشتراها مؤخراً، سيارة تفوق حجما سابقتها، عربة جديدة بخطوط الرمادية وأخرى حمراء، كان يُعاملها أبي بالكثير من الحرص والعناية، فيما نُعاملها نحنُ بالكثير من الانبهار، هذه العربة الجديدة الجميلة التي احتشدت بكل أغراضنا وحاجياتنا الثقيلة والخفيفة، إلى درجة أن من يُشاهدها عن بُعد يُشفق عليها من ثقل تلك الأشياء التي تتكدس بعضها فوق بعض.

صوت أيوب طارش ينبثق:

وا صبايا وا ملاح هيا اقطفين لي مشاقر
وارصفين لي الورود الحمر وسط المزاهر
واطرحين الكواذي البيض بين المباخر
لحبيبي هو حبيب القلب أول وآخر

ألصق الغطاء الجلدي البني المُخرم الذي يُسرب صوت جهاز التسجيل الجديد الذي أهداني إياه أبي بأذني، أرفع درجة الصوت المُنبعث من ذلك الجهاز، تلك أحب أغنياته إليّ، لا أعرف تحديداً ما هو سر تعلُّقي بصوته، نبرته تُفجر داخلي ينابيع من حنين وشجن لا يُفهم.

موعدنا السنوي الذي يبدأ كل عام مع انتهاء العام الدراسي، بدأ في ذلك الصباح الصيفي، في مثل هذا الوقت من كل عام نجمع شتات أنفسنا ونشتري كماً كبيراً من كُل الأشياء التي لا تعرفها القرية

المُتوارية خلف سُحب الجبال المُتعالية فوق رؤوس أهلها ونرحل صوب القرية.

كان أخي قيس يُساعد والدي في حزم الأمتعة ورصفها فوق السيارة وبداخلها حتى تسعنا نحن وكُل تلك الأشياء، أما أنا فقد أُوكلت لي مُهمة التأكد من إقفال الأبواب والشبابيك في منزلنا الذي نُغادره لأكثر من شهرين نقضيهما في ربوع القرية هرباً من قيظ هذه المدينة الصغيرة الخانق، رحلة القرية نقطعها كل عام برفقة جارنا محمد والد صديقي سيف وآخرين من أبناء القرية لنرتحل سوياً في قافلة صغيرة من السيارات المُتلاحقة وصولاً إلى هناك.

كنا نسير باتجاه أقصى جنوب الجزيرة العربية التي تكون في هذا الوقت من العام في أوج قيظها، نقطع المُدن المُتجاورة في مسيرة سريعة مُمتعة لا يُعكر صفوها شيء كنا نتوقف أحياناً في بعض المدن للتبضع أو حتى اكتشاف معالمها... كنا نعتبرها جزءاً من رحلتنا السياحية، نمر من خلالها بأكثر من مدينة، رحلة سنوية تُبهرنا وتمتعنا، أو أننا نكتفي بعبور النقاط الحدودية في البقاع الفاصلة بين وطني وموطني، والقاسم المُشترك بين كل تلك الخرائط المُشتبكة هو الاحترام الذي كنا نحظى به لدى العبور، كنا نُعامل كما يستحق أي شخص أن يُعامل، كماً معقولاً من الحزم يوازيه شيء كثير من إنصاف وعدل، كان مروراً إنسانياً سريعاً كما يليق بكرامة البشر؛ لذا كانت الرحلة مُمتعة مُبهجة تنسرب سريعاً في دربَي الذهاب والعودة.

ليجيء حلولنا في القرية حدثاً فريداً من نوعه، حدثاً جديراً بالتداول والانتظار في كل مرة، لم يوازِه أهمية سوى سيارة سالم العاطف الحمراء بزيحها الرمادي الجميل، والتي خلقت لغطاً مُدوياً

في أرجاء المُحيط، ؛ فظهورها الأول على أعتاب القرية وفي طرقاتها الضيقة أشرع العيون على اتساعها، لتُصبح تلك الزيارة حديثاً يُجاوز الأقرباء والجيران، ويصلُ إلى القرى والمناطق المُجاورة. كان الناس يتدافعون بشغف لمشاهدة العربة الكبيرة المُبهرة التي جاء بها سالم العاطف، لم تكن سيارتنا الحدث هي كل ما أثار دهشة أهل القرية وما جاورها، بل زيارتنا أيضاً بكل ما يحوطها من أشياء تحتشد بالجديد والمُميز، ففي زيارتنا هذه تحديداً جاء أبي بجهاز الفيديو لوالدته، كان يُعد أول جهاز من نوعه يدخل بيوت القرية، مُعجزة صغيرة كلّفت والدي حينها ثروة صغيرة، ليجيء بها كهدية لوالدته في دارتها الجديدة رفقة عدد من الأشرطة التي تضم أهم المسرحيات الخليجية والأفلام العربية.

تلك الهدية الغالية غير المتوقعة منحت صالحة قدراً باذخاً من الفخر والسعادة، حيث وهبتها هذه الهدية فرصة ذهبية للتباهي بهذا الجهاز الفريد، وإقامة الأمسيات الاحتفالية على شرفه، احتفالات مُزدحمة يؤمها الكبير والصغير من أفرع العائلة القريبة والبعيدة في مجالس رجالية وأخرى نسائية تُختتم عادة بمآدب طعام فاخرة يتصدرها المندي والمرقوق والعصيد ببحيرة السمن الفاخر التي تطفو على وجهه المُكتنز.

أتذكر جيداً كيف كُنا صغاراً نتحلق حول التلفاز الموصول بذلك الصندوق المعدني العجيب والدهشة تقفز من أفواهنا وأعيننا النهمة ونحن نتلقف تلك المشاهد التي تنداح على الشاشة وتتقاطر ببهجة وروعة تُغرينا بالانغمار وبالمُشاهدة.

وقد كانت تلك إحدى أهم اللحظات التي أشعرتني بالتميز

والانفراد عن أبناء قريتي البسطاء ممّن كانوا يرون في لُعبي وحاجياتي الكثير من المُدهش والجدير بالاستمتاع والانتظار.

نعم كنت أشعر بالاختلاف، ولم يكن صياح:

- **يا الخليجي..**

ذاك النداء المُنطلق من أفواه الصبية الصغار، عند مروري بالأزقة المُتربة في القرية بثيابي البيضاء النظيفة ليزعجني، على العكس كان يُعزز شعوري بالمُغايرة التي تُرجح كفة تمايزي عن المُحيط، كما يجيء انتمائي إلى أسرة العاطف (أبناء السلاطين) ليعزز شعوري الغامر بذلك الفخر والتميز، فأن تكون ابناً لأسرة العاطف فعليك أن تعتاد حمل هذا الإرث الثقيل المعقود على رأس تلك القرية الشامخة... وهذا ما غرسه فينا باكراً سالم العاطف ولعل غرسه أثمر يانعاً في قلبي أنا، لأتشرب ذلك الفخر وأسكبه حاضراً في وجه الجميع.

هكذا إذاً استمر حدثنا الصيفي السنوي الذي لم ينقطع طوال سنوات طفولتي، بل تواصل على نحو بهيج مُرضٍ للجميع، للقرية وأهلها ممن ينتظرون الهدايا والعجائب التي نأتي بها مُحملة على سقف سيارتنا التي تكبر في كل حين، أو لنا ونحنُ نجتمع مع أقرباء باعدت بيننا الدُنى والأزمان والمسافات لنتقارب في أفق إنساني مُمتع يُشعرنا بالكثير من الأفضلية التي كُنا نملكها ونعيد خلق وشائج علاقات تكاد تمحوها الذاكرة أو تفصمها الأيام.

حين يخنُقنا الهواء

أواخر الثمانينات من القرن العشرين

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية - جنوب غربي آسيا

أن تواجه خوفك وهواجسك وانفعالاتك للمرة الأولى وأن تكون في موقع المواجهة الفاضحة معها، هي تلك التجربة القاسية التي يجب على من هم أمثالي خوضها، وإن حدث أن اصطدمت بها فوق هذه الأرض فذاك يعني خطيئة الاشتباك مع وطنك الجديد الذي لا تعرف أبعاده جيداً بعد.

شجاري المدرسي الأول ذاك الذي جاء مع زميل المدرسة الذي دفعني بعنف ليمزق ثوبي المدرسي الوحيد، فرددت له ضربته بواحدة أخرى تفوقها قوة لأسقطه أرضاً فيفور الدم من رأسه ويغمر وجهه وثوبه، لم أخف ولم يفزعني مشهد الدم، كنت أقف بثبات وقوة أثارت عجبي، وكان جوابي الوحيد أمام ناظر المدرسة...

- كان يعيب على بلادي...احنا محنا بياعين خام ولا طرارين(*).

(*) طرارين: المتسولين.

لم يوبخني أبي كما توقعت ولم يغضبه أنني عوقبت في طابور الصباح وحُرمت من حضور الحصص الأولى، على العكس قال لي بفخر ندر أن يصدُر عنه:

- عاش ولدي والله انك رجال.

حينها تجَذر في داخلي فخري الذي نما وبرعم وامتد ليطال كل شيء، ولم تكن لتلك التجربة أن تهزني، على العكس فقد رسخت في نفسي حقيقة أنني على صواب وأنني وإن اختلفت فلأنني الأفضل لا لأنني أدنى، بخلاف التجربة الأخرى التي جاءت بعد عامين والتي أسقطتني في فوهة الإدراك الخفي الذي بقي مستتراً عني بأقنعة كاذبة لأعوام، كنت أستعد لهذا اليوم بالكثير من الحماسة، كان الاندفاع الجميل يشتبك في عقلي مع مقدار مهول من الثقة بالنفس، فمنذ أن التفت أستاذ التربية البدنية إلى نبوغي المُبكر في تلك اللعبة الصعبة الجديدة على هذا المجتمع حتى التقطني لأصبح بعد فترة قصيرة أحد أبطال رياضة الجودو المُتميزين على مستوى الوطن، ما أكسبني حظوة وأهمية لدى إدارة المدرسة وأساتذتها، هذه الرياضة القاسية في الكثير من مفاصلها والتي تبدو صعبة عصية على أقراني كانت أسهل من المتوقع بالنسبة لي.

النجاح الأولي الذي لفت الأنظار إلى مواهبي الرياضية دفع مُدرسي في الفصول الأولى لضمّي إلى صفوف مُتدربي الجودو في النوادي المسائية المُجاورة لمنزلنا، ما أشعر والدي بالكثير من الفخر والسعادة بولده النابغ في دروسه والمُتميز في هذه الرياضة الرجولية المُمتعة.

أما أنا فقد كنت أستشعر مُتعة غير عادية بهذه الرياضة التي تُخرجني من جسدي النحيل لأصبح محط أنظار الجميع ومركز إعجابهم وتعجبهم، فضآلة حجمي ونحافتي التي كانت محل نقد الكل وتندّرهم لم تحل دون إتقاني لتلك اللعبة المهارية الصعبة.

اليوم هو موعد الاختبار النهائي للحصول على لقب هذه البطولة، ساعات التدريب الطويلة التي سبقت هذا المساء كانت مُسلية بقدر قسوتها وإرهاقها اللذين لم أشعر بهما قط؛ بل كانا مصدر لذة وتحدٍّ بالنسبة لي، فالتدريب المُضني الذي استمر أكثر من ثلاثة أشهر لم يُصبني بأي إرهاق، على العكس كان يرفدني في كل مرة بمقدار من الفخر والفرح.

إلى أن جاء اليوم الموعود، كنت على وشك قطف ثمار التدريب الشاق، مع إيماني الأكيد بقدراتي لنيل اللقب الكبير، فإلى جانب المُرشحين الآخرين كُنتُ أراني الأوفر حظاً تبعاً لترجيحات المُدربين وآرائهم في إمكانياتي وقدراتي، ولما كنت أستشعره في داخلي من إيمان مُطلق بذلك.

لذا حرصت اليوم على الوصول باكراً قبل الموعد المُحدد للمُباراة، فلم أكن أريد أن أترك أية فرصة للمُفاجآت أن تحدث، ارتديت لباس المُسابقة الرسمي وجلست بانتظار حلول موعدي، وعقلي كان يرسمُ لي التفاصيل ويُعدّني للفوز المُرتقب والقريب مني جداً.

بوصول مسؤول المُباراة انحنيت لأداء التحية الخاصة بالبداية، فلم يؤدِّ التحية المُقابلة والتي تعني قبول المُباراة رسمياً، أدهشني هذا التصرف بداية، حتى أشار لي مُعلمي من بعيد بأن أعود إلى مقعدي

وهكذا فعلت، لم أفهم ما حدث أول الأمر، ولكن لاحقاً شرح لي مُدربي بكثير من الارتباك والحرج ينفذ من أصابعه وكلماته بأن النظام ينص على أن من يُشارك في المُسابقات الدولية التي تحمل شعار الدولة الرسمي وتمثيلها يجب أن يكون من المواطنين وليس من الوافدين كما هي الحال معي.

صفعة قاسية أعادت إليّ إحساسي المؤلم بالإقصاء والرفض، وكم كانت موجعة تلك السقطة، لكنها كانت ضرورية بشكل ما، فقد كنت بحاجة إليها لأعيد تقييم ذاتي، لأن أقف على حدود دنياي الصغيرة وأن أضع جانباً قناعاتي الخائبة التي كانت توهمني أنه لا فرق بيني وبين الآخرين.

لا شيء في روحي سوى أشتياقي
للنهر للرعيان، للسواقي
ولهفتي لفرحة التلاقي
لمن فؤادي في هواه باقي

ها هو أيوب طارش يتجلى....

هكذا كانت تسير الحياة إذاً، نحن وافدون غرباء لا ننتمي إلى هذه الأرض، علينا أن نحترم تلك الحدود الصارمة التي تفصلُ بيننا وبين الآخرين من أبناء هذا الوطن المُنتمين إليه بوثائق وصكوك تُثبت انتماءهم إلى تلك الأرض، حتى وإن كانت مشاعرهم تقع في دائرة أخرى بعيدة عن هذا التراب؛ فلا وزن للمشاعر والولاءات، الوزن فقط للوثائق والأوراق الرسمية التي تثبت هذا القرب وتؤكد عليه.

وللغرابة فقد استطاعت ذاكرتي الطفولية المُهتزة أن تبتلع هذه الحادثة دونما القدرة على هضمها، ابتلعتها على أن تطفو إلى السطح في كل حين إذا ما فجأتني مُحرضات من ذلك النوع الذي يُقارب قسوتها أو يُشاطرها وجعها، ربما كانت تلك التجربة تختبئ خلف ستار نفسيٍّ ينتظر الوثوب عند مُنعطف ما، وذاك ما حدث.

الفصل الثاني

عندما انهار العالم

«شيئان في الدنيا يستحقان المُنازعات
الكبيرة. . وطن حنون وامرأة رائعة»
رسول حمزاتوف

ترابٌ وذاكرة

أواخر الثمانينات من القرن العشرين
مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية - جنوب غربي آسيا

راجع لشمس الصبح والمغارب
راجع لبرد الظل في الشواجب
شُبَّابة الراعي أفصحي وهاتي
ورددي لحني وأغنياتي
لفجر عمري لِصبا حياتي
لقريتي لجدولي لشاتي
هُناك أحلامي وزرع حُبي
هُناك إلهامي ووحي قلبي

كنتُ أُحبُّ هذه الأرض، أُحبُّ الركون إليها، لم تغرني وشاية السفر ولم تحرقني لذته كما فعلت مع أبي، كُنتُ أرى الحياة أجمل إذا ما ضُبط إيقاع الزمن لصالح الوجود المُستحق فوقها، الثبات هو ما أبحث عنه أنا شخص يُحب الاعتياد ويميل إلى منطق الرسوخ،

بعيداً عن احتمالات المُغامرة ولذة الارتحال الذي لا يُصدر متعة من أي نوع، أتذكّر جيداً انسيابية الأيام وتدفّقها في ذلك الحين.

كنا صُحبة والدي بجلابيبنا البيضاء النظيفة نتجول في الشوارع التي لا يزال يرتفعُ منها غبارٌ أصفر، لنمُر بطرقات الأسواق الصغيرة التي لم تأخذ شكلاً مُعترفاً به بعد، فمنذ فترة قصيرة فقط انتقلت الأسواق الأرضية لتصبح دكاكين تتوسط قلب المدينة وتُشرف على الخليج العربي، اعتدنا هذا المشوار الأسبوعي المُمتع، لشراء الحاجيات من السوق الرئيسي في صباح كل جمعة لنعود إلى المنزل نودع المشتريات ونخرج ونحن نُسابق الخطو قبل أن يرتفع صوت المؤذن ليشق الفضاء ويهب الكون هدوءاً وسكناً. طوال الطريق إلى هناك كان أبي يُزجي التحايا في الطرقات وفي الشوارع، لننضم أخيراً إلى جموع المُصلين في المسجد الذي يشغل ناصية حيّنا الصغير ببيوته المُتكئة على بعضها وسكانها الذين يعرفون بعضهم جيداً.

جدتي صالحة التي تقضي في حضرة منزلنا زيارة طويلة، أراها وهي تتكئ على الوسادة الحمراء القانية التي تحتل صدارة مجلسنا، تخضب أصابعها الطويلة بالحناء أو تمشط شعرها البني اللامع، بينما أرى طيف أمي بجسدها النحيل وبشعرها الناعم المجدول المُتسلل من تحت غطاء رأسها الذي لا يُغادرها حتى وهي في المنزل، تروح وتجيء وتعمل بجهد ومُثابرة منذ بزوغ الفجر، تستهل يومها بالصلوات والدعاء استجلاباً للبركة والتوفيق لتستمر في عملها الطويل المُرهق حيث تستفيق قبل الجميع تُحضّر الطعام وتُنظف الباحة الشاسعة وتطهو أصنافاً من الطعام لمذاقها حلاوة يصعُب أن تغيب..

- الله يبارك فيكم... الله يسعدكم.

تقولها بلكنتها القروية الثقيلة التي لم تفلح المدينة في محو آثارها عن لسانها.

هكذا كان بيتُنا حينها عالماً صغيراً دافئاً بتفاصيله الدقيقة التي تتطاير في الفضاء مع بخور أمي في صباحات الجُمع يُرافقها صوت إمام الحرم المكي وهو يؤم المُصلين، كل تلك التفاصيل التي كُنا نحيا في ظلالها كانت تمنحنا الشعور المؤكد بكوننا مواطنين ننتمي إلى هذا الوطن، مواطنين برسم انتظار الورقة التي لم تأتِ بعد، ولكن انتظارها أو غيابها لم يكن مُزعجاً لنا في حينها، فنحن مواطنون لا فرق بيننا وبين من يملكون صكوك انتماء رسمية إليه.

وطنٌ جديد
(في ظلال الكارثة)

يونيو 1990

إلى هُناك

وامفارقْ بلاد النور، وعد اللقاء حانْ
الوفا للوطن يدعوك، لبِّ الندا الآنْ
لا تغيبوا، كفى غربة ولوعة وأحزانْ
اليمن تنتظركم ياحبايبْ بالأحضانْ
يا أحبّة، رياض الأنس صحرا وقفرهْ
الحَزَنْ بعدكم أطفا شموع المسرّهْ
والندى في الحقول يبكي على كل زهرهْ
والأماني تناديكم بأعشاش الأشجانْ

مع الأخبار المتطايرة حول وطننا الأم كان إصرار أمي يتزايد بأن نكون هناك، في هذا الصيف الوحيد الذي كان يتردد فيه أبي لحزم الحقائب صوب قريتنا، كان له ما يبرر إحساسه ذاك، ما نحن مُقبلون على زيارته هو كيان جديد مُتحد لا نعرفه.

العُطلة الأولى في وطني الذي استحال كياناً مستحدثاً غريباً، جمهورية جديدة نجتهد للتعرف على معالمها الغريبة علينا، حياة جديدة لنا.

الوحدة هذا ما أُطلق على هذا الوطن الجديد الذي جاء كنتاج للوحدة الوطنية التي جمعت بين قسمي الوطن، والتي جاءت كذلك كواقع جديد فرضه رحيل الحرب الباردة وانحسارها مع ما صاحبه من تغير الموقف السياسي للاتحاد السوفيتي تجاه هذا الكيان الجديد، كل تلك العوامل كبيرها وصغيرها أسست لتلك الخطوة الكبيرة التي عرفها عالمنا الصغير في القرية.

كان علينا إذاً التعرف على معالم هذا العالم الجديد، على ملامح وجوده، وأن نُتقن إلى جانب ذلك كله تقنيات التعامل معه، لم أكن أفهم حينها ما الذي كان يعنيه مُصطلح حملات الرفض الشعبية، وماذا كان يقصد والدي لدى حديثه عن الحراك الداخلي المُستعر، كنت أدنى من أُدرك أبعاد تلك الأمور المصيرية التي كانت تجري لي ومن حولي، كل ما كُنت أعرفه أنني كُنت أحيا في ظلال واقع سياسي واجتماعي جديد غريب، واقعٌ علَيَّ أن أراه وأتعايش معه ومثلي يفعل كل من حولي دون أن نعي تماماً حقيقة ما يدور أو مآلات تلك الأمور، كل ما يحدث حدث دون أن أستوعبه حضوراً وإن كُنت أدرك تفاصيله غيباً وتلقاءً، كل هذا حدث في مايو من العام نفسه، لذا كان حلولنا في القرية هذه المرة مُختلفاً، لم يكن كأي حضور سابق.

زيارة لم تطُل كثيراً، أرادها أبي قصيرة مُقتضبة تنتهي سريعاً، وهذا ما كان.

أغسطس 1990

من هنا إلى هناك

يا غريب الوطن، يكفيك غربةْ وأسفارْ
الوفا دَيْن، يالله، شرفوا الأهل والدارْ
لا تردوا الرسائل، ما تطفي الورق نارْ
والنقود ما تسلّي من معه في الهوى شانْ
لو تسلّى بوعد الصبر نايُ الجوارحْ
وابتسم من بكى يخفي لهيب الجوارحْ
أيقظ الوجدَ رعدُ الآهِ حنّان جارحْ
وأمطر الدمع يتوسل ويشكي الذي كانْ
لُمّ أحبابنا يا شوق من كل مهجرْ
دُقّ ناقوس جمع الشمل في كل محضرْ
لأجل حزن الشجي المهجور يسلى ويسترْ

لا أعلم لماذا كان هذا العام حافلاً بالألم إلى هذا الحد المُخيف، كان عام الأحداث الكبار والمسارات الباترة والمحطات الفارقة، تلك المحطات التي تموضعت في زوايا تلك التواريخ، والتي مثّلت نقطة التحول الكبرى في مسيرة عالمنا الصغير عالمي أنا وأسرتي أسرة العاطف الصغيرة، في الثاني من أغسطس 1990، هذا العام تعرّضت إحدى دول الجوار إلى اعتداء من دولة جارة، حدث سياسي عسكري لم يكن في الحُسبان ولم يسبق له مثيل بعثر الأمان المزعوم الذي كُنا نحياه في وطني، أحدث هزة عنيفة على مستوى المجتمع والوطن، الاحتلال تلك المُفردة الغريبة التي لم أعرفها يوماً

إلا كعنوان يتصدر صفحات الجرائد اليومية لدى الحديث عن فلسطين السليبة.

وطني اعترته حالة من الارتباك الأولي سرعان ما تحولت إلى حالة تضامن واضحة، الأعلام الرباعية الألوان اجتاحت الشوارع، لوحات السيارات التي تحمل اسم ذلك الوطن بتُّ أراها في كل مكان وطبقة من غبار خفيف تكسوها، جزء كبير من أبناء تلك الدولة باتوا زملائي في مدرستي ومدارس أخرى، بالطبع كانوا ينتمون إلى المواطنين ولم يلتحقوا بحلقتنا الإنسانية الضيقة، واقع مفاجئ جديد الكل حاول استيعابه والتعامل معه، أولنا أولئك المُرغمون على مغادرة بلادهم، وعلى تقبل فكرة أنهم عادوا بلا وطن وأنهم مُجرد أغراب في وطن يحاولون اللجوء إليه، وإن كان هذا الوطن باذخاً بما يمنحه لهم من تأكيدات انتماء وقُرب.

والأماني بأوتار القلوب، تعزف الدانْ
ياخي فجر الهنا بالنور يكتب رسايلْ
فوق برج اليمن، يا كلّ باني وعاملْ
وابتسم للمطر والسيل حزنُ الخمايلْ

أما بلادي البعيدة القصية فقد قررت اتخاذ موقف آخر موقف مُفاجئ صادم لنا ولكل أهله وحتى لتلك الدولة التي غُدر بها، فقد قررت بلادي التي كنت أعرفها سابقاً أن تتلاشى فجأة من خارطة الوجود السياسي والجغرافي ليندمج شمالها البعيد بجنوبها القصي ليُصبح كلاهما واحداً لا انفصال بينهما.

وليُقرر هذا الوجود الطارئ الجديد اتخاذ موقف مُفاجئ لا يُفهم، وليؤيد هذا الاحتلال وذلك الاعتداء البغيض على تلك الدولة الصغيرة، وهذا الموقف الموجع الذي صدر عن هذا الكيان المُتخلق تواً وضعنا وأمثالنا في موقع المُدان المرفوض، فقد بتنا بين ليلة وضحاها أعداءً يتربصون بتلك الأوطان الصغيرة، أعداءً بانتظار الفرصة المُناسبة للانقضاض على وجود وكيان هذه الدول التي منحتهم ملاذاً وموطناً وعالماً يليق بهم ليمنحوها في المُقابل خيانة ما كانت متوقعة منهم ولا حتى مُنتظرة، كان علينا أن نتراجع خطوات إلى الوراء وأن نتعامل بمنطق المُدان وأن نقبل بذلك التعامل راضين قانعين، طبيعة العلاقة بالجيران وبزملاء الدراسة وبأبناء المُجتمع تغيرت كلياً.

تلك المواقف السياسية التي لا علاقة لنا بها، حُمِّلنا ضريبتها الباهظة فجأة، أمر كبر واتسع ليطال الجميع بمن فيهم أبي فقد جُرد من رتبته العسكرية كما الكثيرين من أمثاله وتم تجميده عملياً، كون العناصر غير الوطنية باتت تُشكل خطراً على الأمن الداخلي لتلك الدول، سُرِّح من الجيش ومِثله عدد كبير من جنسيات مُختلفة معظمها من أبناء مُحيطنا.

مُزاملة الانتظار الحالك وغبش البطالة القاتم الذي حلّق فوق رأس أبي، دفعه للتفكير بحلول مُلائمة لما استجد معنا، ومن هنا فكّر في العودة إلى القرية، فوجودنا المُرفوض وتلك الوخزة الباترة من أحاسيس الإقصاء التي باتت أكثر شراسة وصلادة، حتى تلك النداءات الساخرة التي تجتاحنا بقسوة، باتت كلها أكثر وضوحاً وجلبة.

لذا أُجبرنا على ترك منزلنا الذي نُحبه واعتدناه لنعود إلى الوطن الجديد الذي لا نعرفه، عدنا نحن أولاً على متن طائرة صغيرة حملتنا إليه، عدنا إلى القرية مُقتطعين عامنا الدراسي في بدايته، فلا مكان لنا هناك، إقصاء لم أفهمه، كيف أُنفى من وطني فأنا وفق عُرفي ورؤيتي مواطن لا يحق لأحد أن يُبعده عن عالمه، مُفارقة عجفاء أرهقتني وتركتني حائراً بعدها.

عُدنا إلى القرية إذاً، عُدنا إلى وطن لم نكن نعرفه، كان أهالي القرية الواهنة يحاولون التأقلم مع واقعهم الجديد مُتلمسين مكامن السُلطة الغريبة التي اجتاحتهم، مُتحسسين معالم النظام الجديد بكل قوانينه وأحواله وكُل ما يحمله من غرائب وإزعاجات بات الجميع مُرغماً على تقبُّلها، ومثلنا الكثير من العائدين إلى هنا مُحملين بوزر وطن كان من الحُمق لأن يوقعهم في مأزق الخيانة التي ما قاربوها أبداً، النقمة، الحزن والأسى ذاك كان واقعنا الجديد الذي نُحاول التعايش معه، المدارس التي نُحاول الاندماج في فصولها الدراسية والتي نشعرُ في زواياها بالكثير من الاغتراب والبُعد والنفور.

نداءات من نوع:

- يا الخليجي...

- يا بو....

باتت تُزعجني، لم تعد كالنداءات السابقة التي وهبتني قدراً من الفخر وشيئاً مُتسعاً من التمايز؛ على العكس هي اليوم تنشب في داخلي بإفراط المُتعب من كل ما يحدُث حوله من أمور لا دخل له بها ولا يد له في تحويل أو تغيير مساراتها مهما اجتهد وحاول.

أخي قيس قرر أن يُصبح أكثر ذكاءً مني، ترك الدراسة واتجه للعمل، اكترى دكاناً صغيراً في أطراف القرية يبيع فيه المواد التموينية الأساسية ليُلحقها فيما بعد بأصناف الحلوى والمُكسرات التي يستوردها من الخارج ليُصبح دكانه الصغير هذا مصدر دخله التجاري المُتنامي، أما أختي الكبرى سناء واستجابة لمُقتضيات المُحيط فقد قُرر عنها، أن تترك الدراسة التي تُحبها للاقتران بأحد أقربائنا البعيدين، في حين نجحت جواهر بعنادها المُشاكس في البقاء خارج دائرة المُفترض، أما أنا فحلمي بالالتحاق بكلية الهندسة لم يُفارقني أبداً، كنت أراه حقاً مُتجسداً واستحقاقاً إنسانياً في مقابل اجتهادي وتميزي الدراسي، لذا نجحت في مُغالبة اغترابي وأسرجت غضبي ونقمتي واندمجت فعلياً بعالمي الجديد الذي لا أكاد أعرفه وأتحسس ملامحه بمرارة.

أما أبي سالم العاطف فقد بقي مُتمسكاً بما تبقّى له هناك، بوظيفته التي لا يُريد التخلي عنها وإن أُرغم على التنازل عن الرتبة العسكرية التي كان يحملها، ليحمل رتبة أدنى دونما المساس بمخصصاته المالية، قبل راضياً بتلك التسوية التي لم تُرضِ الكثيرين فدفعتهم للمغادرة والرحيل أو على الأقل البحث عن فضاءات عمل أخرى، أما هو فقد كان مُتمسكاً إلى أقصى حد بفكرة الوجود فوق تلك الأرض التي أحبها وبهذه الوظيفة التي منحته قدراً ومهابة كان يرتجيها، لذا كان يصعبُ عليه مُغادرتها مهما توطنت في داخله لعنة السفر واشتعلت في رأسه أطيافها الواشية بالمُتعة، لو كان يملك تلك الورقة السحرية لما حدث كل ذلك، كان وقتها الحقيقي قد آن فعلاً ولكنها أبت أن تجيء.

كانت تلك السنة موجعة بقدر مهول ومُحزن ومُشبعة بكم كبير من الأسى والخذلان، الذي لا يزال ماثلاً في رأسي بكل تجلياته ورؤاه التي لا تغيب عني أبداً مهما أخذني مشوار الحياة بخطاه إلى ممرات ومسارب شتى.

ها نحنُ عُدنا..

بواكير التسعينات

من هُناك إلى هُنا.. عبر الصحراء

بعد أيام بدت لي طويلة إلى حد لا يُحتمل، عُدنا إلى مهبط القلب، عُدنا أخيراً إلى وطننا الذي نُحبه ولا نُطيق عنه ابتعاداً، بعد ثلاث سنوات كانت من القسوة والسوء بمكان أننا ما عُدنا بعدها نستطيع التعرف على أنفسنا، حوَّلتنا تلك المرحلة إلى أشخاص مُغايرين لم يعودوا يشبهون أولئك الذين كانوهم ذات يوم، عُدنا إلى وطننا الحبيب أخيراً، ذاك الوطن الذي ننتمي إليه وتقودنا إليه خُطانا وقلوبنا.

رحلنا منه خمسة وعدنا إليها ثلاثة فقط، عدنا أنا وأمي وأختي جواهر، أما قيس فقد تمسّك بالقرية بعدما أسّس أسرته الصغيرة ودكانه الذي بدأت بضاعته تروج وتزدهر، كذلك سناء التي بقيت هناك مع أسرتها الجديدة وزوجها الذي يحلم بفرصة عمل جديدة تأتي به إلى هُنا، عُدنا لنلتحق بوالدي بعدما جاءنا يحملنا بسيارته الرمادية وليأخذنا من أعتاب قريتنا إلى وطننا المُكتسب، هذة المرة جاء سالم العاطف بلا هدايا وبلا مفاجآت، بلا لهفة اعتادت أن

تسبقه في كل زيارة، كانت زيارته باردة على روعتها، أما بالنسبة لنا فقد كانت تلك المرة هي الزيارة المُنتظرة، عُدنا بعدها مع والدي لنعبر الأراضي القاحلة التي كنا نعرفُها جيداً.

كان الدرب الصحراوي المُضني هذه المرة مُزدحماً بمحطات التوقف، فقد اضطررنا للوقوف طويلاً في كل نُقطة حدودية نمرُ بها، كما العبور الذي كان يستغرق منا وقتاً وجهداً يسيراً في الماضي أصبح اليوم مُحتشداً بالانتظارات المُمضة والمحطات المُهينة التي كُنا نقفُ على أعتابها مُضطرين، وقت طويل مُرهق مَرَّ بنا، وزمن إنساني مُستهلك، غزتنا فيه تلك النظرات المحشوة بالإهانة والانتقاص، وأُخضعنا لإجراءات أمنية في غاية الصرامة والغلظة.

أتذكّر كيف أنني اجتهدت لأن أتغاضى عن تلك النظرات الموجعة التي وجّهها لنا الجميع، وأغضّ طرفي عن تلك اللغة الاتهامية القاسية التي أتتنا مُنطلقة من أفواه العسكريين ورجال الشرطة، كنا نشعرُ أن في الأمر خطباً ما، وكالعادة حاولتُ استيعاب ما يحدُث واجتهدت لأتقبله بأكبر قدر مُمكن من الهدوء والتفهم. أما أبي فكان يكتفي بأن يمنحنا نظرة مواسية، تقول لنا بأسى فاضح: لا بأس، كل ما علينا هو الاحتمال قليلاً، هذه المُعاملة المُغايرة تركتني حيالها مشدوهاً غير قادر على استشفاف الصورة بوضوح أو حتى القدرة على التنبؤ بما هو قادم، فقد أشعرتني هذه التجربة بمقدار كبير من الغُبن وخلَّفت في روحي إحساساً مُرّاً بالإهانة والازدراء. رغم كل ذلك حاولت استيعاب التغيير بشكل ما، كما اجتهدت لأن أتفهم أسبابه، كما حاول أبي أن يهبنا التبريرات التي قد تُسهم في تقبل واقعنا الجديد ذاك الذي بات يُحاصرنا، تبريرات بدت في كثيرٍ من محطاتها مُثيرة للضحك المصحوب بالأسى.

وفي الوطن كذلك تغيرت كل الأمور ولم تعد كما كانت في الماضي؛ فلم تكن تعاملاتنا تسير بانسيابية وسهولة وهدوء كشأنها سابقاً، كما تلك الفجوة التي كانت تفصلنا عن الآخرين باتت أكثر اتساعاً ووضوحاً كشأن التعامل الإنساني مع المحيط الذي اكتسى بلون آخر كان علينا أن نعتاده ونتقبله.

كانت النظرات الرافضة تنغرس من حولنا كالأشواك، كما البشر الذين يشعروننا بوضوح أننا في مرتبة أدنى وأقل عبر كل الأشياء مهما صغُرت واستحالت نقاطاً هامشية، وبكل الطرق المتاحة، في إجراءات تجديد الإقامة وإصدار الرُّخص والتأشيرات التي كانت أشبه بالكوابيس، وعبر الأوراق المتكومة، والتواقيع التي لا تنتهي، تجلت بوضوح سافر في تلك الملفات التي تُشرعُ أفواهها لالتقام الورق، دوامات اعتدناها، رضيناها، فقط لنحيا هاهنا، كنت أراه ثمناً بخساً في مقابل البقاء في وطن أحبّه وأهواه.

فقد أدركنا جميعاً أنه بات علينا أن نتراجع خطوات إلى الوراء وأن لا نُدخل أنفسنا في شُبهة المُقارنة مع أبناء الوطن الأصليين، فهناك فرقٌ شاسعٌ بين ما هو أصلي وما هو مزور، كما علينا أن لا نحاول التشبُّه بهم في كل شيء وفي أدنى شيء في لباسهم أو لهجتهم أو مظهرهم وإن غلبنا الاعتياد لِئلّا نُدخل أنفسنا في دائرة التزوير.

نعم لقد تغير كُل شيء، وبالتأكيد تراجع حلم الورقة المُنتظرة، تراجع حلم التجنيس الذي ينتظره أبي وبتنا ننتظره معه لعله يُخفف من وقع الواقع الثقيل الذي بتنا نحيا في ظلاله القاتمة.

وانكسر...

مطلع التسعينات

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

وأنا إليك مشتاق صابر وصبري يا حبيب قد ضاق
أضمأ وتُسقيني الحياة أشواق وأضحك نفاق
والقلب ملؤه أحراق
أين الحنان خليتني مُضيع أشتي أمان من تحت دارك أجزع
شاعاتبك عتاب قلب موجع وأرش طريقك بالدموع
وأرجع ظنيتني شانساك خاب ظنك أمسي وأحلامي يعانقنَّك
وأصبح وأشواقي يدورنَّك وأسمع دموعي يسألين عنَّك
أصبحت انا كلّك وأنت كلّي فأين تولِّي
أنت واين أولي ما أشتيش وطن ولا أهيل يقع لي حُبَّكْ
وطن قلبي وأنت أهلي

هو أيوب طارش، بحزنه وفرحه وبكل تجلياته يأتيني دافئاً حنوناً.

عدنا إذاً إلى تراب الوطن، وبعودتنا انتظمت سريعاً في صفوف مدرستي التي أسقطت من حساباتها عاماً دراسياً كاملاً أتممته هناك ولكن لم يُعتد به هنا، التحقت بالمدرسة مُتأخراً عن أقراني سنة كاملة، لكنني كُنت راضياً بهذه التسوية فقد كنتُ أشعرُ بالانتماء إلى هُنا لا هناك، فأنا جُزء من نسيج هذا المُجتمع.

هذه هي سنتي الدراسية ما قبل الأخيرة في المدرسة الثانوية، سُرعان ما عاودت الانسجام مع محيطي الدراسي الجديد فأنا ما زلت أتقدم الصف في درجاتي الدراسية المُرتفعة التي حرصت على الإبقاء عليها في ذلك السُّلم المُرتفع، لأحقق طموحي في الالتحاق بكلية الهندسة الحُلم، الهندسة الكيميائية تحديداً، حُلمي وانتظاراتي المُقبلة.

الحاجز غير المرئي الذي كان يفصلنا عن أبناء الوطن بات أكثر وضوحاً وسماكة، بتنا نستشعره ونحسُّ به وهو يحوطنا، يطوقنا، ذاك النداء المُستهين الذي ينطلقُ في **أروقة** المدرسة ليصلنا صارخاً مؤذياً:

- يا بو...

تعقبها ضحكة مُدوية يجتمع عليها الصبية وترافقها ابتسامات الأساتذة التي تأتي بمثابة الموافقة الضمنية على ما يفعلونه، أصبحت مثل هذه التصرفات فعل اعتياد، هكذا إذاً، في القرية أنا ابن هذا الوطن، وفي هذا الوطن أنا ابن تلك القرية، وكأنه قدرٌ يُصاحبني ويرفض أن ينسلخ عني.

التصاقي بذلك المكان القديم الذي يأبى أن يُفارقني، انتمائي إلى

قريتي التي يُنكرني أهلُها، واشتباكي مع جذور أحاول التخلي عنها فتلتصق بي أكثر، هي وقائع عليَّ التعامل معها بذكاء وصبر شديد.

ولكن مهما كانت تلك المعاملة سيئة ومحشوة بقدر كبير لا يخطئه قلب من الإهانة، ومهما أوجعتني تلك النظرة التي تكتسي دونية وكراهية والتي يصعب أن يغفلها الإحساس، إلا أنني لم أبالِ ولم أتاثر ولم تتأثر دراستي بأي شكل كان، فقد أبقيت عيني على الحُلم الذي أتوق إليه، كان الحُلم يبدو أمامي واضحاً لا يختفي ولا يخبو نوره، أنا المهندس عمر سالم العاطف.

أما عائلتي فقد كانت تعيش أدوارها المُعتادة بسكون واطمئنان جميل، محاولات أبي وما تبقى من أقربائنا في التقاط فرص وظيفية لزوج أختي سناء تبخرت في الهواء فالفرص تتضاءل ومُمكنات الهجرة ما عادت بسهولة الماضي.

ظهرت النتائج أخيراً، معدلي المُرتفع الذي طار بي إلى سماء سابعة سرعان ما هوى بي إلى وادٍ سحيق من الإحباط؛ كنت أقف في صف طويل من المُتقدمين للدراسة الجامعية، أحمل في يدي أوراقي بكثير من التشبث والفخر، وصلت إلى الموظف الذي تسلم أوراقي بشكل آلي دون أن يلتفت صوبي، ليقول لي بعد برهة دون أي ابتسامة أو حتى محاولتها:

- البعثات المجانية المُتاحة للدراسة في هذا العام هي في تخصص إدارة الأعمال أو نظم المعلومات أو المُحاسبة، عليك أن تختار واحداً من هذه التخصصات..

- والهندسة الكيميائية أو هندسة البترول؟

- هذه مُتاحة للمواطنين فقط..

قالها ببرود والتفت يُنهي ما في يده من أوراق لم تبدُ ذات أهمية، ابتلعتُ صدمتي. عدتُ إلى المنزل أحمل خيبتي بين يدي، لأول مرة ألمح حناناً يتدفق من أبي، أو ربما كان عطفا وأسى يقطران من قلبه وعينيه، قال لي وهو يربتُ على كتفي المكسورة:

- سُواة الله أبرك... انطر يا ولدي ويصير خير.

أما أنا فقد ابتلعتُ الوجع بما استطعتُ من صبر، وبدأتُ أحصي ما تبقى لي.

بعد ثلاثة أيام عاد أبي من الخارج وفي صوته رنة بهجة لا تخطئها أذني:

- خلاص يبا ولا يهمك أنا بارسلك بعثة تدرس اللي تبيه.

- صح يبا شلون؟

فرحتي كانت تتكور في جوفي، وانفعالي يسبقُ ردة فعلي المتوقعة، كان المُخطط أن يُرسلني للدراسة في الهند، دراسة على نفقة والدي الخاصة، بتكاليف معقولة وتخصص كما أُريد وجامعة على مستوى علمي مقبول، كانت تسوية مُرضية بالنسبة لي، فرحتُ بها، على الأقل سأدرسُ ما أحب، سأدرسُ الهندسة، سأحققُ حلماً بعيداً انتظرته، والدتي هي الوحيدة التي لم تكن راضية، رأيتها ووجهها يتقلص ويذوي وينزعج:

- أنا ناقصة فراق.. مو كفاية علي عيالي اللي ما شفتهم من سنين!

منطق الأمومة الحنون سرعان ما خُذل في مقابل منطق الواقع الذي وقفنا جميعاً نُدافع عنه بحماسة وشدة، كنت أعد العدة للرحيل الذي لم أمِلْ له يوماً ولم أَهْوَه كسائر أسرة العاطف، إلا أنني هذه المرة كنت راغباً فيه، مُتحمسا لخوض غماره، وأنا أودع أختي البعيدة عبر أسلاك لامرئية، باغتني صوت جدتي، كانت غاضبة رافضة لذلك القرار الذي لا هدف من ورائه سوى الخسارة:

- شفرق الدراسه برا عن الدراسة في البلاد ولا هو خسارة وبس.

لحسن حظي أن سالم العاطف الذي اعتاد الاستجابة لكل ما تقوله صالحة قرر هذه المرة أن يكون مُختلفاً أن يرفض الانصياع لما تقوله وذاك من حسن حظي.

كانت أمي تُساعدني في حزم الحقائب، وتُناضل لأن تُثنينا جميعاً عن هذا القرار الذي ترى فيه تهديداً جديداً لعائلتها المُشتتة أصلاً، كان داخلها يُنبئها بأن الأمور لن تسير على ما يرام وأن شيئاً سيئاً يتربص بي في الأفق، لا أعلم إن كانت تلك حاسة الأم السادسة أم أنها نبوءة تتبناها عائلتنا مُنذ أن وُجدت على وجه الأرض، ما أعرفه جيداً أن أمي كانت كعادتها.. على حق.

لاذعٌ

أواخر التسعينات

مدينة حيدر آباد – جنوب الهند

هو السفر تلك اللعنة التي تتشبث في جلودنا وتسكن حواسنا دون أن نملك حق مُقاومتها، كانت تلك اللعنة المُستبدة طرفاً صعب المراس في صراعي الجديد مع فُرص الحياة المُشتهاة، نعم أضنتني الغربة وغار في قلبي وجع الابتعاد إلا أنني تجاوزت ذلك كله، ونحَّيتُ كل شعور في داخلي جانباً، فقد بحثت عن منطق مقبول يخصني، يرضيني، يقنعني بأن ما يحدُث عادي طبيعي ومقبول.

وهكذا بدأت أحب جامعتي الكبيرة التي انتسبت لها بمحض الإرغام لا الخيار، بفصولها الدراسية الشاسعة وطلبتها الذين جاؤوا من بقاع مُتباينة. فالشهور القليلة التي مرت بي وأنا بعيد عن وطني الذي أحبه حولتني بسرعة مذهلة إلى شخص آخر مُختلف عن ذاك الذي كُنته في وطني المُستعار، خبرةُ الحياة وحيداً كانت اختباراً من نوعٍ آخر، اختباراً فرضته الغربة وأصَّله احتياجي الإنساني المُلح، كنت أغسلُ ثيابي وأطهو طعامي بنفسي، في الوقت الذي أحرصُ فيه بشدة على مُتابعة دروسي بإخلاص وتفانٍ حقيقيين، صحبتي الذين

استطعت تأسيس علاقة إنسانية قوية معهم وطدت أواصرها الغربة، فقد كنتُ أحرصُ على مُشاطرتهم أوقات الفراغ القليلة جداً في حضور دروس الفقه والعقيدة وحفظ أجزاء من القرآن الكريم أو حتى احتساء أقداح الكرك الثقيل الحلو ونحن نستحضر حكايا الوطن وذاكرته الحية.

أما الليالي فكانت فضاء لانفرادي بحضور أيوب طارش الذي أحال وحدتي إلى حضور إنساني عذب لا يُنسى، لذا فإن تأقلمي مع هذا العالم الجديد لم يستغرق مني وقتاً طويلاً، كُنتُ راضياً تماماً عن وضعي وإن صعُب واستعصى وأرَّقني، فأنا أدرس ما تمنيته وما حلمت به منذ كنت صغيراً لم يتشكل وعيي بعد، لكن اختلاف الأجواء وطبيعة الطعام الذي كنتُ أجبر على تناوله هو ما نغص عليَّ جمال هذه التجربة، كنتُ أشعرُ بتلك النكهة المُختلفة منذ البداية، والتي ما استساغها لساني قط، وسببت لي آلاماً غير مفهومة حاولت مقاومتها بكل الوسائل المُتاحة، كأن أطهو طعامي بنفسي وأستخدم مواد وأطعمة أُحضرها خصيصاً من الوطن لا سيما العسل الذي فيه شفاء لكل الأدواء كما كانت تقول لي أمي دوماً..

إلا أن مُحاولتي المُجتهدة تلك لم تأتِ أُكلها، على العكس كان الوضع يزدادُ سوءاً بمرور الزمن.

غرفةٌ خانقة...

أواخر التسعينات

مطار إحدى دول الخليج العربية...

عُطلتي الأولى تأتي أخيراً، لقاءٌ اشتقت إليه وانتظرتهُ طويلاً انتظاراً مُمضاً مُتعباً للروح والجسد الذي كان يُعاني أصلاً من أعراض غير مفهومة تُرجمت على هيئة هُزال وضعف اعتراه، تذكرة العودة التي اقتطعها لي أبي كانت على متن هذه الخطوط الجوية، بمحطات توقف كثيرة، الأمر الذي لم يهمني كثيراً في حينها فبالنسبة لي ما كان يهمني هو العودة إلى الوطن.

كانت رحلة العودة بصحبة أصدقاء جمعتني بهم غربتان ووطنٌ واحدٌ بعيد، كنا ثلاثة على متن الشوق، مرت بنا المحطة الأولى التي كانت عبر دولة آسيوية قريبة بطيئة مُتعبة لكننا تجاوزناها، لتحملنا الطائرة مُجدداً إلى هذه الدولة الخليجية القريبة، ومثله كان الانتظار الثاني مُرهقاً، غالبناه بأن المسافة باتت أقرب وأن الغُربة توشك أن تنتهي إلى حيثُ الهدف، قُبيل الصعود إلى الطائرة الأخيرة كنا نمرُ بالتدقيق النهائي الذي يفرض مراجعة وثائق السفر والتأكد من وجود تأشيرات السفر المُعتمدة في تلك البلدان.

أحد أصدقاء الرحلة فهد كانت صلاحية تأشيرته ستنتهي بعد شهر تقريباً، ما دفع السلطات لرفض ركوبه الطائرة والإبقاء عليه في المطار لحين النظر في إمكانية سفره أو إعادته إلى البلد الذي جاء منه أو إلى الوطن الأم، كانت فكرة تركه والسفر من دونه مرفوضة تماماً بالنسبة لي، قُلت له نحن جئنا كمجموعة ولن نُغادر إلا كذلك، محاولاته لثنيي عن رأيي لم تنجح مهما اجتهد فيها.

- خخخخخلاص رررررروحوا انتو.. وانا بس أخخخخخلص من هالمشكلة أللللللحقكم بالطيارة اللي بعدها... لا تعطلووون رووووحكم.

تأتأته التي تُلازمه ازدادت وضوحاً وتبدياً في وضعه هذا، شفقتي غمرتني، وتعاطفي تضاعف معه ومع ما يمر به، ليزداد إصراري على البقاء معه في هذا الموقف الصعب.

- وش تقول يا فهد.. أنا ما راح أمشي إلا وأنت معي.

ربما قدر المنتمين إلى ديار بلقيس أن يعيش أبداً في ظلال قهره ووجعه أن يدفع ضريبة الانتماء إلى تلك البقعة القصية الناعسة وعلينا أن نقبل مقتضياته وأحكامه وإن جاءت ثقيلة واخزة، هذا ما كان إذاً، سافر محمد صديقنا الثالث، غادرت به الطائرة من دوننا، أما نحن فقد أُخذنا إلى غرفة أمنية مُنكفئة في زاوية الممر المُعتم. انتظارٌ طويل، وتعاملٌ مُهين واتهاماتٌ لا نعرف لها أصلاً تأتينا مُغلفة بنوايا سيئة كانت توجه لنا من دون سبب ومن دون مُبرر منطقي مُقنع، وضعٌ

استفزني دفع بي إلى حافة غضب نادرا ما تجرني الحياة إليه، وأعترف أنني بانفعالاتي تلك كدت أجرُّ الأمور إلى وضع أسوأ، إلى درجة طالت معها الإجراءات الأمنية حتى أننا هُدِّدنا بأن نقع ضحية الاعتقال الرسمي، كل هذا لأنني حاولت التمرد على هذا الوضع الإنساني الرديء الذي لا يُرضي أحداً، لم أكن لأقبل بمثل تلك التصرفات التي تفتقر إلى الإنسانية بينما كان فهد يحاول صادقاً تهدئتي، محاولاته الحثيثة كانت محكومة بالفشل فقد كنت أشتعل وأنطفئ وبداخلي أسى مؤجج لا يكاد ينتهي أو يتوقف، بعد مرور أكثر من ثمان وأربعين ساعة قضيناها في تلك الغرفة الكئيبة من دون طعام، فقط أقداح ماء كانت تأتينا بين الحين والآخر، غادرنا على متن الطائرة صوب الوطن المُزور رفقة أوامر مُشددة بضرورة تجديد صلاحية التأشيرة التي يحملها فهد لمدة عام واحد على الأقل وإلا لن يُسمح له بالمُغادرة عبر هذا المطار مرة أخرى، غادرنا وفي داخلي يحتقن غضب أحمر يوشك على التفجر من أطرافي، لدى الوصول كان استقبال الأهل أشد حرارة ولهفة خصوصاً مع غيابنا الذي أنبأهم عن أسبابه صديقنا الثالث.

بالطبع حادثة من هذا النوع يصعبُ أن ينساها أحدنا أو أن تغادر ذاكرتَه بسهولة، لكننا حاولنا التعايش مع تلك الغصة، حاولنا مُجاراة الواقع واللعب على إيقاعه المُر حتى كدنا ننسى ما مر بنا هناك.

سريرٌ أصفر

أواخر التسعينات

مدينة حيدر آباد – جنوب الهند

الألم ذلك الشيء الغامض الكائن اللامرئي، الكامن أبداً في دواخلنا والذي ينفر من حيث لا نعلم ليشغل حيزاً شاسعاً من مشاعرنا، حيزاً يصعُب معه التعامل مع ما عداه من أمور، تتعدد أشكاله وتتنوع مذاقاته وتتراوح درجاته بين انبعاث مُشَبع موجع وبين انحسار مأمول وغياب مُنتظر، أما بالنسبة لي فهو قرين كل المراحل والأشياء والأهم هو شريكٌ أصيل في ذاكرتي التي يقتحمها الألم بلا استئذان وبلا مواعيد مُسبقة.

مُنتصف العام الدراسي في سنتي الدراسية الثانية في الجامعة العثمانية في مدينة حيدر آباد، تفوق مُمتع يشهد عليه أساتذتي في مجال الهندسة الكيميائية، شعور بالفخر والمُتعة يغزو روحي وأنا أشعر بأنني على وشك اقتطاف ثمار ذلك الحلم، لا بأس مهما بدا لي ثمن ذلك النجاح باهظاً أدفعه مقسطاً من روحي وأعصابي التي تزداد ضعفاً وجسدي الذي ينخره ألمه.

فإن إحساس السعادة الحلو يسقط باذخاً على روحي، سعادة لا

يُعكر صفوها سوى تلك الآلام التي تفاجئني بين الحين والآخر والتي أداويها عادة بالحبوب التي يصفها لي الطبيب المُعالج، بعدما فشل عسل أمي في إيقاف وجعها.

حتى بلغ ذاك الوجع ذروته، بلغ أقصاه في ذلك الصباح الداهم كنت على وشك تقديم امتحان مُنتصف العام عندما فاجأني ذلك الألم غير المُحتمل، نُقلت على إثره إلى المُستشفى القريب من الجامعة، آلامي كانت تتزايد، الإبر الموصولة بتلك المحاليل الطبية التي تُحقن ليلاً ونهاراً بمضادات وأدوية لم تعُد تُجدي نفعاً، ضاع عليَّ تقديم عدد من الاختبارات التي تم تأجيلها نظراً لحالتي الصحية، وانقطعت عن أسرتي وصوت أمي، الأمر الذي عللله الأصدقاء بانشغالي بالدراسة، إلى أن قرر الطبيب إجراء جراحة عاجلة تستدعيها حالتي الصحية، عندها فقط اتصل أصدقائي بوالدي الذي جاء على وجه السرعة إلى هُنا وفور السماح لي بمغادرة المشفى، عُدنا أنا وهو إلى الوطن المسروق، برأيه كما أمي لا شيء في الدُنيا يستحق التضحية بالحياة وإن كانت شهادة حُلم أتوق لأن تتعلق مِيمُها باسمي الأول، عُدتُ بعدما أهدرتُ سنة ونصف في دراسة تخصص أُحبه.

على متن الطائرة التي حملتنا إلى هناك، كان رأسي يحاول جمع شتات ما يمكن أن يحدث في قادم الأيام وقريبها، بينما يحاول جسدي مُغالبة ما تبقّى من وجعٍ يتعلقُ به بقسوة.

يوليو 2002

المدينة الجامعية

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية - جنوب غربي آسيا

أن تملك روحاً مشاكسة وأن تضع دوماً نظارة من خيارات زاهية تحملك على الإقرار بما هو ممكن ومحتمل يعني أن تتقن فن قبول البدائل، أن تحترف التسوية، هذا كل ما كان عليَّ القيام به، أنا القروي العنيد بروحه الصلدة، لذا اتخذتُ القرار سريعاً دونما انتظار طويل ودون إضاعة للوقت الثمين، التحقتُ بقسم نظم المعلومات في الجامعة الحكومية، ببعثة مجانية مع احتساب بعض المواد التي اجتزتها هناك، قبلت بهذا التخصص كونه الأقرب إلى مجالي الذي أحبه كما أنه يعدُّ أحد التخصصات المطلوبة والرائجة مهنياً.

وربما لأنني وللغرابة شخص يحمل كمّاً غير مفهوم من التفاؤل ويتمتع بقدرة فائقة على التأقلم مع الواقع مهما بلغت قسوته، فلم أستغرق وقتاً طويلاً في حسم هذه التجربة لصالحي، إيماناً مني بأن التعاطي مع الأمور بهذه الطريقة يُعدُّ من الحكمة وأن تلك هي تقنيات التعامل السليم مع الحياة ومع قسوتها المُفرطة والتي لا تأتي مقاديرها كما نتمناها دوماً.

كان للحياة أن تسير على نحو اعتيادي، فلا تغير مساري الجامعي ولا التحاقي بتخصص دراسي مُختلف يمكن أن يزلزل الدنيا كما كان متوقعاً، ولكن ما حدث بعد تلك الإجازة الصيفية القصيرة كان قادراً على فعل ذلك، تلك الإجازة التي قضتها أسرتي في القرية التي بقيت

حبال وصلنا مشدودة إليها بوثوق أصيل لم تغيره الظروف الطارئة، فلا تراجع مكانتنا في وطني ولا تضاؤل ممكنات حصولنا على الجواز ولا حتى تلك الدرجة الوظيفية البسيطة التي بقي والدي عالقا في سُلَّمها لأعوام بقادرة على أن تغير نظرتنا إلى الأمور، على العكس استمرت مساعدات أبي تتدفق على القرية لتشمل زوج أختي الذي لم تفلح جهودنا في التقاط فرصة وظيفية له، فلا مستواه الدراسي المتواضع ولا ممكنات قبولنا في ذلك المجتمع عادت بالرحابة التي كانت سابقاً، في حين أن أوضاع أخي بقيت مستقرة طيبة كما يجب لها أن تكون.

جدتي صالحة بقيت هي الحاضرة دوماً في كل تلك المراحل صاحبة النصيب الأكبر في صندوق المعونات الشهري الذي يبعث به أبي إلى هناك، كما أن صوتها بقي الأعلى والأكثر حضوراً على ما عداه من أصوات.

في هذه الزيارة التي غادر فيها الجميع الوطن صوب قريتنا الجميلة في حين بقيت أنا في الوطن لاستكمال دراستي في الفصل الدراسي الصيفي، شهرين وقليل كانت المدة الزمنية التي مرت بهم هناك، ليعودوا من هناك على متن السيارة الجيمس البيضاء الكبيرة المُزدحمة بهم، غادرت مُحملة بالأشخاص والهدايا والمؤن، لتعود وهي مُحملة بالعسل والسمن والحزن الأسود الذي يسكنُ وجه أمي، حزن لم أفهمه بادئ الأمر، كما لم أفهم سر وجود تلك البنت الصغيرة بجديلتها السوداء وعينيها الزائغتين على المُحيط، كما لم أفهم الدموع التي انحبست بعينَي جواهر الواسعتين.

لاحقاً علمتُ أن جدتي، كما يحلو لها دوماً أن تعكر صفو

والدتي، ابنة أخيها، وأن تحيل كل شيء جميل يحوطها إلى حزن غائم، أرغمت أبي على الاقتران برانيا، الفتاة الصغيرة التي لم تجاوز الثامنة عشرة، بحجة أنها فتاة صغيرة قادرة على إكثار ذريته وتنمية أسرته التي تنكمش في حين أن وضعه المادي يزدهر ويزداد بهاءً وعلوّاً، قرار لم يملك والدي سوى الانصياع له سعيداً فرحاً، هكذا هي دوماً صالحة التي يعرفها الجميع، والتي تحبُّ لعب دور القائد الذي يملك دفة الحياة ودفة الآخرين.

وكما هي أمي عادة رضخت للواقع بصمت النساء الحكيمات اللواتي يردن الحفاظ على بيوتهن، جاءت زوجة أبي لتحتل غرفة أمي الكبيرة، ولتندس هي في غرفة جواهر الضيقة.

صمت ورضوخ لم أفهمهما ولم أجد لهما مبرراً، كيف لهذه الزوجة الطارئة أن تحظى بكل الأشياء التي حُرمنا منها جميعاً! وكيف نجحت في التغلب على بُخل أبي وحرصه الشديد الذي دفعنا ثمنه باهظاً طوال الأعوام الماضية؛ فالهدايا كانت تتدفق عليها بكل وقت وبلا مناسبة، كنا نرى ونرقب ونشاهد كل ذلك ونحن لا نملك سوى الامتعاض والرفض ولا شيء سواه، لم يجسر أينا على التدخل أو حتى محاولته؛ بقينا متفرجين على مقاعد المشاهدة.

ولكن بعد عام واحد فقط اكتشفت الزوجة الصغيرة أن ما حلمت به لن يأتي؛ فحلم المواطنة الذي منت نفسها به، والذي أغراها به أقرباؤها للاقتران بهذا الرجل الذي يكبرها بعقود طويلة لم يتحقق، والطفلة الصغيرة التي جاءتها باتت تشكل عبئاً يثقل كاهلها ويزعجها ويعكر ساعات نومها، ليستفيق منزلنا ذات صباح وقد حملت ما تبقى لها من أشياء ثمينة ورحلت بلا عودة إلى قريتها، فقد اكتشفت أنها

كانت مُخطئة بأن أقدمت على هذا المشروع الفاشل، رحلت لتترك طفلة لم تتجاوز بضعة أشهر في عُهدة أمي التي هدَّها الحزن، ونخزتها الغيرة والكبر.

- **جعلكن الجني.**

هذا كل ما استطاعت قوله عندما فاجأها هذا الوضع غير المتوقع.

تلك التجربة بمقدار غرابتها وقسوتها علينا جميعاً كانت ضرورية لإعادة اكتشاف أنفسنا وإعادة التعرف من جديد على سالم العاطف، هذا المجهول، الغريب الذي لم نكن ندرك من قبل أبعاد أفكاره ولا حدود رؤياه؛ عرفنا أنه بمقدار قسوته وبخله كانت له روح مُتدفقة تُشبهه وحده.

فُرصٌ مُناورة

يوليو 2004

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

أن تتجاوز تجربة ما بنجاح عليك أن توجد لها بديلاً فورياً، أن تقفز من فوقها بإصرار وعزم، وهو ما تأتى لنا في ذلك اليوم، حفل تخرج بهيج حرص أهلي جميعاً بمن فيهم والدتي بغطائها الأسود المحكم الإسدال على وجهها وكما جواهر بخمارها الكبير المتسع، حتى منيرة ابنة العامين كانت حاضرة هي الأخرى في هذا اليوم الكبير. الكل شاركني حفلي، هذا الحفل الذي شكل لتلك الأسرة الصغيرة نافذة فرح منتظر كما مثَّل بالنسبة لهم مناسبة مُثلى للإعلان عن فخرهم وتباهيهم بهذا الرجل الذي ينتسب إليهم ويحمل اليوم شهادة علمية عُليا، جاؤوا ليروا الجميع كيف أصبح اليوم عمر، كيف تحول ابن القرية البسيط المتواضع إلى هذا الرجل المرموق، هذا الفتى اليانع الذي استطاع الخروج من حصارها وفقرها المُستبد صوب عالم جديد واعد ينتظره.

كان حفلاً جميلاً حرصت عائلتي على أن تتناقل صوره وأحداثه بين أهلنا وأقربائنا في القرية لتصبح ذكرى خالدة، كما الصورة التي

تحتل صدارة المجلس الكبير ليُشير لها أبي بفخر وتباهٍ كلما زارنا أحد، وحدها صالحة لم تكن ترى في هذا الأمر أي شيء خاص:

- وش فايده هالورقة.. وش تسوي

صوتها يخترق الفرح، يحيله أشلاء وشظايا ملونة.

بعد التخرج بأسابيع التحقتُ بالعمل في شركة خاصة تابعة لأحد أساتذتي في الجامعة، أولئك الذين لمسوا تميزي باكراً، لتأتيني فرصة العمل هذه براتب لا بأس به، كان هذا الراتب مُتنفساً جميلاً، ودرباً انفتح صوب أفق التعاطي مع شخصيات وعوالم وأفراد، فمنحني فُرصاً جميلة أخرجتني من عالمي الضيق لألج دروباً باعثة على البهجة.

أجمل ما كان فيها هو حصولي على مُسمى وظيفي (مدير تنفيذي)، ما سهَّل عليَّ أمور السفر والحصول على التأشيرات؛ فبفضل هذا المُسمى الصغير استطعت وللمرة الأولى زيارة هذه المدينة اليانعة، الحُلم، المدينة التي ما ظننت نفسي أبداً قادراً على وطوء أعتابها، الصغيرة التي أرهقت سمعي وأشعلت في داخلي موجات مُستعرة من لهفة الاكتشاف، وبفضله كذلك زرت أهم مُدن العالم، لندن وبروكسل ومدريد، مُدناً بعيدة جميلة لم يكن يظن ذلك القروي الذي يسكُنني أنه سيكون قادراً أبداً على زيارتها بهذا التكرار وذلك التعدد.

خياناتٌ صُغرى

أوائل نوفمبر 2006

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غرب آسيا

أدركت أخيراً كم أنا قروي حقيقي، قرويٌّ ينتمي إلى تلك الأرض النافرة المُكدسة بالجبال والمطر وأن روحي المتمردة بقيت كما هي لم يمسّها طيفٌ من تغيير أو اختلاف، جاء أبي من هناك أول الأمر فتحول إلى مواطن بدرجة انتماء لا انتساب فيما بقيت أنا مُحملاً بهذا الكم الثقيل من الولاء، وبفضل هذه الروح العنيدة استطعت كسر حلقة اليأس إذاً لا بأس وإن لم أصبح مُهندساً كما تمنيت أن أكون، فأنا اليوم شيء آخر، شيء يُرضيني... نعم أسعى لأن أحصل على درجات علمية أرفع تليق بي لكن رضا جميل يعتريني.

كانت حياتنا تسير بانسيابية حلوة مُحببة، وكنت حينها أُعيدُ اكتشاف التفاصيل والعوالم المُزدهية، وأسبر الدُنى الملونة بذهول مُبهج، إلى درجة كِدتُ معها أن أنسى ذلك الفارق الموجع الذي يشطر حضوري إلى أجزاء، وأتناسى أمر تلك الورقة المُنتظرة التي لم تهبنا إياها الأقدار بعد.

كل شيء كان يسير على نحو طبيعي رائع يشي بالتطور والارتقاء، حتى جاءتني الحياةُ بها، كان ذلك بعد عام أو اثنين من دخولي العالم المهني، في بدايات الشتاء المُرتجى جاءتني كقارّة مجهولة آن وقت اكتشافها، وجودها الناعم أضفى على حياتي اليابسة فرحاً ومُتعة لم أكن لأعرفهما من قبل، إلا أنه أربك التوازنات القائمة في روحي، بعثرني على نحو أهوج، أنا من كان يُرغم نفسه على الوقوف على مسافة مُحددة خلف أسوار العُزلة التي تؤكد لي أنني لا أنتمي إلى هذا الوطن، وأن وجودي مهما ارتقى واعتلى فسيبقى وجوداً مؤقتاً، فأنا الوافد الذي لا يحقُّ له أن ينتسب أو يفكر بالاقتراب من أبناء الوطن، مهما صغُر شكل هذا الارتباط الذي يتحول إلى الاستحالة إذا ما طال أمراً يُقارب الزواج، تلك الحقيقة المُرّة التي كثيراً ما كان أبي يدسُّها في جيوب قلبي إذا ما طرأ طارئ يخصُّ الزواج أو يقتربُ منه.

- يا ولدي احنا ما ناخذ إلا مواخيذنا... وان بغيت تعرس ما عليك إلا تقول لي قربانا وايد وكل من يحلم يناسبنا يا ولدي...

توصيات والدي بقيت عالقة في رأسي، كما أحاديثه حول أصلنا وجذورنا العميقة العالقة بتلك الأرض فنحن نسل أسرة العاطف العريقة رفيعة الشأن بحضورها وقربها الذي يترجاه الجميع، كلها بقيت ماثلة في رأسي ومعها صددت أي رغبة نفرت في روحي ذات مرة أو طالبتني بقرب لا يحق لي به، كنت أرى أن زواجي أمر أسري محسوم لصالح إحدى قريباتنا من القرية أو حتى ممَّن وفدن منها إلى هنا، لا حلم يعلو هذا الحلم المحسوم.

حتى جاءت ليلى، ومعها تجاوزت هذا الحاجز الغليظ

الموصود، ولجته بغباء وحُمق وتسرع لذيذ، فعل لاإرادي أدخلني دُنى من بهجة لا يعرفُها أحد، حينها لم أكن أفكر في الضريبة الثقيلة التي كانت ترتبها الأقدار لي ولم أحسب حساب العواقب الموجعة، كنتُ أطرق أبواباً وقفت منها دوماً على مسافة من العقل لأقترب من الجنون.

حدث أن تعثرتُ بها وأنا أُعِدّ مشروعي المهني الأول في الهيئة المعنية بتنظيم المعارض والاحتفالات في جهة عملي الأولى، هي القادمة من دول الجوار القريبة، لفتت نظري بابتسامتها الساحرة التي تفتر عن أسنان معوجة وعينين تضيقان حتى تكادا تنغلقان، ما لفتني أكثر هو اسمها، تحديداً اسم عائلتها الذي أعرفه جيداً، أشهر العوائل التي نعرفها في الوطن كما الباء التي تنبئ عنه بوضوح لا يخطئه خبير، كانت أكثر حظاً مني فعائلتها امتلكت تلك الورقة السحرية باكراً لتنغرس جذورها في تلك الأرض التي انتمت إليها وتبنتها، إذاً هناك ما يجمعنا أصل واحد وجذور بعيدة.

سُمرتها المُشبعة بالشمس كانت تُذكرُني بالقرية، وعيناها الرماديتان الواسعتان اللتان تذكرانني بأختي جواهر أكدتا لي قُربها، وحده شعرها الأشقر الذي تختلف درجاته باختلاف الفصول والمواسم هو ما أشكل عليَّ هذا القُرب، كانت نموذجاً فريداً، شيئاً مُختلطاً بين ما هو قريب تألفه وما هو غريب بعيد يُجبرك على أن تُؤخَذ به رغماً عنك.

- إي أكيد سمعت عن هالمكان وايد من أبوي ويدتي، احنا اصلنا من قرية قريبة منكم جدا. . .شفت لها صور وفيديوات وايد على اليوتيوب. . .شفت شلون طلعنا أهل عيل. . .

وابتسامة مستغلقة تنبئ عن صدق صقيل، كان هذا ردها عندما سألتها عن اسم عائلتها والمنطقة التي نتحدر منها كلانا، هكذا جاءني ردُّها المُفعم بالصدق، ذُهلتُ من قدرتها على التعبير عن نفسها بتلك البساطة بلا عُقد أو مخاوف أو تصورات مُسبقة.

كانت ذات لكنة مُحببة، إذا ما استغرقتْ في حديث تُحبُّه تجيء حروفها مكشوطة الحواف، لتُضيء حماستها وهجاً أحمر في عينيها عند الحديث والتدفق، تُرغمك على سماع صوتها المغموس بالحدة والجفاف.

ليلاً في المساءات التي يزورني طيفها وأنا أجلس في حوش بيتنا الجميل الصغير، كان يشاطرني الحضور صوت أيوب طارش وهو يغزو قلبي أكثر من المعتاد:

ما أحلى هواك لكن حولك أشواك سواك نَكّاني بها ونكاك جرحت
لكن ما أزال أهواك والحب عافى جرحتى وعافاك
خلِّ الندى فوقك عليك يهمي واترك همومك لي
فأنت همي شاشل غرمك في الهوى وغرمي
قسمك حناني والجراح قسمي
هذا عطا قلبي قَسَمْ
وأعطاك ما أنتاش ملومي انت أو خصيمي
كيف أحسبك أو أكتبك غريمي
وأنت زرع الحب في صميمي
أزهرت واعشوشبت في هثيمي

وأنت من بين الضباء ريمي
أتأملك بين الضبا وأرعاك

لم أكن أظن يوم رأيتها للمرة الأولى أنني سأنغرم بها إلى هذا الحد، لم أكن أظن أن هذا الكائن المُحتشد طفولة مُشاغبة قادرٌ على أن يُدوخني به إلى هذه الدرجة، ولكنها كانت حدثاً خارج المُفترض، تجربة في ما خلفته بعدها من حرائق ودمار يصعُب إعادة تعميره، إلا أنها كانت جديرة بأن تُعاش وتحيا بكل تفاصيلها وانبعاثاتها وتجلياتها، وحتى خيباتها وانكساراتها الموجعة.

عوالمُ أُولى

نوفمبر 2009

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

يا أنت يا من أنت لا أُسَمِّي
يا صدق حبي لا سراب وهمي
ويا خليطي في دمي ولحمي
أغويتني حتى حروف أسمي ما تَكْتَبْش إلا إذا تهجَّاك

سريعاً كانت تخطو علاقتنا على درجات القرب ربما لذلك الأصل المشتبك البعيد فضل هذا التسارع الحلو أو لعله يكمن في روحها النابضة صدقاً وتدفقاً، لكن ما حدث يصعب تفسيره بسهولة، يصعب قياس نبضه المتعالي، يشكل على الواحد منا أن يجد له تفسيراً منطقياً إنسانياً مقبولاً.

كل ما أعرفه وأعرفه جيداً أن ليلى أصبحت جزءاً مهماً من وجودي الطارئ على تلك الأرض، أصبحت حدثاً يعينني على تقبل واقعي العكر وعلى العيش وفق مقتضياته البالغة القسوة، لم تكن

تعنيها قضية الورقة ولم تنشغل بحضورها من عدمه، كانت تراها قضية هامشية لا تستحق الاهتمام.

- إذا كانت هناك مُباراة بين فريقين، وطنك وموطنك، أيهما ستشجع؟

ليلى أطلقت هذا السؤال وهي تجاورني في مقعد سيارتي الصغيرة ونحن نجوب شوارع مدينتي التي تزورها للمرة الثانية، هي تملك ذلك النوع الشاهق من الأسئلة المدسوسة بعسل الذكاء الدبق.

أقولها بثقة لا يشبهها شيء:

- حتماً أشجع موطني... أشجع الوطن الذي لم أعرف سواه وإن لم يعرفني بعد.

كان يُحيرها -ولا تلام- هذا الالتباس الغامض بين وطن وموطن، أنا من يتباهى بجذور عالقة على سفوح جبال ندية في بُقعة قصية في جنوب الخليج العربي بينما يتشبثُ بإصرار بالبقاء حيث هذا الوطن الجديد المُزدهي برغبات حداثة مُحيرة، هي من تنتمي إلى وطنها بتباهٍ وفخر أحسدها عليهما، فقد استطاعت ليلى بسهولة أن تتجاوز عقدتي مع الجذور، وأن تقفز فوق حاجز الولاءات الخائبة، ربما لأنها ولدت لتجد نفسها مواطنة في حين ما زلت أنا بانتظار ما لم يأتِ بعد.

تتشرّبني الدهشة وأنا أراها تنتفض إذا أثرت أمراً لا يعجبني في

وطنها، تلك الرقيقة الحالمة تتحول إلى كُتلة نار، رغم أنها تتباهى كونها ثورية بامتياز وناقدة صارمة لكل ما يحدث حولها إلا أن الوطن كان يشكل بالنسبة لها خطاً أحمر وعلاقة ود غامضة وشديدة الحضور.

أيوب طارش حاضر دوماً... أسمع صوته الدافئ يشدو ويشجيني:

حبيت حبيت حبيت
ماشى حلمت أو ترائيت
ولا تمنيت باليت
حبيت ياناس حبيت
وانا مع الحب في بيت

ما أحلى حبيبي وسط داري يحوم
كأن عندي كل ضوء النجوم
والنهر والزهر وقطر الندى
ورونق الشمسِ وظل الغيوم

خلال هذا العُمر القصير من زمن التعارف جاءت ليلى هذه المرة من دون ارتباطات عمل أو اجتماعات مهنية، جاءت فقط لنلتقي، كانت رحلة ضرورية لنكتشف خلالها حميمية هذه العلاقة وأصل وجودها ومُمكنات استمراريتها في ظل كل تلك المصاعب التي تسكنها، وكانت تجربة على قدر مهول من الصدق والروعة.

وحدها جواهر هي من شاطرتني سرّي الصغير عن ليلاي. . . جواهر التي حالوا بينها وبين رغبتها العارمة في استكمال دراستها، قيل لها «انتي بنت ولا مكان لك في الجامعات المُختلطة ذاك شر مُستطير لا ترضاه أسرتنا المُحافظة الوقورة»، كان ثمناً دفعته راضية لرفضها الزواج من قريبنا في قريتنا هناك، لم تُرد مُفارقة هذه الأرض فضّلت البقاء مُلتصقة فيها جزءاً منها وإن فقدت حقها الأصيل في التعلم. . . كانت غير مُتفائلة بتلك العلاقة التي ما لها من مُستقبل مأمون، ولأنني كُنتُ أرى بمنظار الحب المُشرق الموعود فقد حُجبت عني آفاق حالكة كان يرصدها الجميع.

كنتُ أنا وليلى نحاول في تلك الأثناء بناء جسور من ثقة لم تحتج إلى جهد كبير منا لأن تُبنى وتُعمر وتزداد حلاوة، حلاوة كانت تنسيني في كثير من محطاتها ذلك الوعد الذي قطعته على نفسي باكراً بأن لا أحلام ولا وعود ولا ممكنات قابلة للتحقُّق الفعلي.

وعود أخلفتها سريعاً كلما قادتني خطواتي صوب عوالم ليلى.

استداراتُ الدهشة

مارس 2010

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

لا أدري كيف لي أن أتحدث عمّا يربطني بها، وعمّا حدث لأتعلق بذلك الحادث الإنساني الناعم القابل للتهشم السريع، وأنتسب إلى تلك الرقيقة جداً حدود الفزع والصلبة جداً حد الحضور الكبير المتعالي، ما أعرفه جيداً أنه سيكون حديثاً صعباً حتماً يناهز أطوار المستحيل فكيف لك أن تصف أنثى تأبى حتى هذه اللغة الثرية الباذخة أن تصفها.

– اتركي العلاقة.. اتركيها لتُحلق بعيداً.. في فضاء لا يخصُ المُحيط.. اتركيها ترتفع كأفق مفتوح على المُقبل.. دون أن تظللها وعود ودون أن تُدنسها أحلام شاهقة أو تشوهها تفاصيل.. دعيها تطير في سماء تخصُّنا نحنُ فقط.. لا تحتضن سوى مشاعر لا يُدركها سوانا.

كان ذاك صوتي الذي كان يجتهد في صياغة المُمكنات وفي

تلافي الوجع المُحتمل، ذاك الذي كانت أراه يتربص بنا في زاوية المُنتظر.

كنت أعلم بحكم الواقع المرير الذي أحياه في وطن يمنحني نصف هوية وربع اعتراف أن عليَّ أن أكون واقعياً مُدركاً لمرارة ما ينتظره أمثالنا، وأن العلاقات المُكتملة مع من يملكون أفضلية الانتماء عبر صكوك ورقية باردة تمنحهم شرف الانتساب إلى مُدن وعوالم تخصهم وحدهم أشبه ما تكون بالحلم الذي يُقارب سقف المُعجزة بالنسبة لي ولأمثالي.

صوتها الذي يسقطُ كندىً صباحي بارد على أذني:

- أنا لا أراها سوى مُكتملة مُلونة ومُزهرة.. تُشبهنا جداً.

ليلى تنتمي إلى ذلك النوع البشري النادر الذي أُحب، ذلك النوع الذي يري ألوان قوس قزح وهي تنداحُ على الطرقات والأرصفة يراها تُزين السماوات والمُدن، نوع لا يعرف التفرقة بين الأمنيات والوقائع، جنسٌ بشري بات مفقوداً.

رغم تلك الفجوة الإنسانية الساحقة التي كانت تُفرقنا فقد كنا نتشابه حدود الدهشة، تطابق اكتشفناه تدريجياً بتراتبية مُلغزة.

على سبيل التطابق كنا نكره فصل الشتاء، كانت تتلقانا استدارات الغرابة المُستقرة في عيون الآخرين حين نُجابههم بكُرهنا للغيوم المُحتشدة، بُقع رمادية في زرقة ترجو الانبلاج والتجلي، وتخنقنا الابتسامات ونحن نُفصح عن عشقنا المُحير لفصل الصيف وتوقنا إلى شمسه المُلتهبة.

ياما احب الناس من قبلنا
وقد يحب الناس من بعدنا
لكننا في حبنا وحدنا
فليس عند الناس ما عندنا

من جديد أيوب طارش حاضر فيما بيننا . . .

الأغرب كان ذلك الكبرياء المُستقر على كتفي تلك الأنثى، أنا من كُنت أرى في نفسي أنني أرتقي سقفاً شاهقاً من الكبرياء يصعب أن يرتقيه أحد، أدهشتني كل تلك العظمة التي تسكن رأسها وحيرني كل ذلك الشموخ الباهر الذي تلبسه وهي تتحدث وتنظر وتسير، من أين لمثل تلك المرأة أن تأتي بكل ذلك الألق، هي من تبتسم ببراءة طفلة لم تشوهها سخافات الحياة.

إذا وهبنا النوم أجفاننا
أمسى هوانا تحتها لا ينوم
وإن أتانا الصحو خلّى لنا
قيامة الأشواق فينا تقوم

في تلك الأثناء كانت كل مشاريع الزواج التي يطرحها أهلي عليّ أجد مُبررات مُخترعة لرفضها أو إرجائها، إلحاح أبي وغضبه المُستبين أحياناً ونظرات أمي المُشبعة بالرجاء لم تفلح في أن تدفعني لتغيير رأيي، حتى دور صالحة وهي تبث في أذن والدي حقيقة أنه لا بد من الزواج وأن الأمر تأخر كثيراً وعليه أن يفعل شيئاً تجاه

إجباري على اتخاذ تلك الخطوة، كل تلك الأشياء لم تدفعني للاستجابة، كما لم يفعل تأليبها ضدي شيئاً، على العكس ازددت عناداً وتشبثاً برأيي وقراري.

من مثلنا في الحب من مثلنا
لقد لقينا في الهوى رغدنا
لا زهرنا يظمأ ولا وردنا
كأنما رعد السما رعدنا

كنت آمل وأخطط وأرسم مُستقبلاً مع ليلى رغم أنني كنت أدرك أن ارتباطنا أمر يُقارب المُستحيل إن لم يفُقْه، مثلي كانت هي، مشاريع الزواج تجابهها بالرفض القاطع، كثيراً ما كان يغزوني صوتها المزكوم بالبكاء، لخلاف دب بينها وبين أهلها على خلفية موضوع الزواج والارتباط، صوتها الواهن الجميل لا يزال حاضراً بكل تجلياته وألوانه.

الفصل الثالث

وجعٌ مُنتظر

فُسحة انعتاق...

مارس 2012 –

مطار حديث في دولة خليجية في شرق شبه الجزيرة العربية

قاعة المغادرين

الانفصال، الفرقة، البُعد، مفردات اعتدتها، لم تعد غريبة علي ولا حتى تُحدث في داخلي أثراً مُحزناً أو كئيباً، على العكس كنت أتوخّاها وأتوقعها في كل خطوة ومرحلة من مراحل علاقتي بتلك الأنثى التي تقف على حافة الابهار أبداً، تجلى ذلك البُعد وانبلج في ذلك اليوم.

كُنتُ أقبضُ على أوراقي بحرص وغضب، صفّان من المُسافرين أحدهما طويل جداً ويضم كل الأجناس والآخر قصير ويضم النُخبة فقط، كانت تلك إحدى أكثر مراحل الانفصال والبُعد وضوحاً وتبدّياً.

نظراتها كانت تُطاردني، رغم أن إجراءاتها انتهت سريعاً خُروجاً من منطقة فحص الحقائب والتفتيش الذاتي، إلا أنها تخلفت عن ركب المُسافرين من حملة جوازات سفر المنطقة، وقفت هناك تنتظر

صفي الإنساني الطويل، تلقتني ابتسامتها، وانفجر في داخلي إحساسي المُضني بالخذلان، كيف أرتبط بها وهي تفوقني بحملها لتلك الوثائق الثمينة.

كنا نستعد لخوض رحلة مهنية جماعية صوب غرب شمال أفريقيا، رحلة طويلة شاقة، كنا نرتحل من الخليج إلى المُحيط.

وإن فرَّقتنا تلك الطوابير الحادة فإن هذه الرحلة الفاتنة قد جمعتني بليلى للمرة الأولى خارج حدود الوطن، كنا ضمن وفد كبير يضم أطيافاً من البشر بأعمار وأجناس وجنسيات مُختلفة، فقط كنا أنا وهي خارج سرب تلك المجموعة الكُبرى، اثنان وجدا في تلك الرحلة فرصة مُثلى للوجود المُنبعث من المُمكن والمرغوب فيه بشدة بكل تموجاته وأطيافه وحتى بنقاطه الفاصلة.

بالطبع لم أتردد في خوض هذه الرحلة التي وجدتُ فيها فرصة رائعة للامتزاج والاقتراب من ليلى، في مقعدَي الطائرة المُتجاورين عن هوى كانت عقارب الوقت تنطوي سريعاً باعثةً في الفضاء عطورَ ولهٍ جميلة.

مطار بلد عربي

أقصى غرب شمال أفريقيا

لدى الوصول لم تكن هناك طوابير وتصانيف تُفرقنا بعضنا عن بعض كما هناك، إلا أنني تركتها تتقدم لأتأخر أنا بضع خطوات، كانت تقف بثقة تُحادث موظف الجوازات وابتسامتها تقطرُ حلاوة كما هي عادتها، مدت له جواز سفرها بزرقته البهية، بعد لحظات أشارت لي بالاقتراب، رأيت الخيبة واضحة في وجه الموظف حالما أعطيته جواز سفري بغلافه الأسود القاتم، رأيتها جلية تقفزُ من وجهه وشبح استهانة غائم يطفو في المحيط، حاولت ليلى أن تكسر ذلك القيد، كانت تضحك وتحكي بلهجة تلك المدينة التي تزورها للمرة الأولى، كانت تُبهرني وأنا أراها عن قرب وأرمق ثقتها وذكاءها الذي يقفز بين طيات الكلام. مرة بعد أخرى وحدث بعد آخر أتاكد أن ليلى أنثى تقع خارج كل ممكن ومفترض وواجب أن يكون.

هي امراة بهية تفوق قدرتك على تخيُّلها.

مارس 2012

بلد عربي في أقصى غرب شمال أفريقيا

قدر الانفصال الذي يلازمنا ويلاحقنا ويتشبث بنا، كُنتُ أغالب مرارته وقسوته، أفكر في أنه فضاء التقارب مع ليلى وفُرصه الضئيلة التي لا تتاح في هواء الأوطان المُزورة والمحقونة بالفُرقة والأفكار المسبقة، لذا كنت أحاول ابتلاع ما يمر بي دون أن يُحدث خدوشاً في داخلي، وهو عبث لم يكن له تبرير.

مثل ما حدث معي في المطار تكرر الموقف ذاته في الفندق وقت تسجيل الدخول، كانت جوازات النُخبة تحظى باهتمام وأحاديث ومُعاملة خاصة جداً، بينما أنا وآخرون ننتمي إلى العوالم البسيطة ذاتها، كنا نتراجع خطوات عنهم، ليلى وحدها كانت تحاول أن تُشعرني بأنه لا فارق ولا تمييز وأن الوضع طبيعي لا غرابة فيه، ربما لأنها تتحدر من هناك وكانت تشعر ضمنياً أنها تنتمي إلينا حيثما نكون.

أما أنا فقد كنت أرمق بوضوح تلك النظرة العابثة التي تتسلل من عيون أقرانها تقذف صوبي باتهامات أعلم يقيناً أنها تتسلل إلى

عقولهم المريضة، لن أنسى تلك الجملة التي انبعثت مُصادفة وأنا أمر بجوار مجموعة في بهو الفندق جلسوا لاحتساء القهوة وتناول البشر.

- لازق بليلى هاليومين.. ما تدري مسكينة يقص عليها كله عشان الجواز.. يبي إقامة.

- والا يمكن يبي يشتغل بديرتها.

ضحكات تعلو وترتفع وتحلق في هواء المكان.

يومها اشتعل في داخلي غضبٌ أبكم، ترجمته بقسوة في التعامل مع ليلى وفي فجوة تعمدتها أن تتسع بيننا، هذا التصرف الذي لم تفهمه ليلى ولم تستطع ترجمة مصدره.

رغم ذلك لم أستطع مواصلة الابتعاد ولم أقوَ على افتعال الفِراق المُمِض طويلاً، فلن أُضيع فرصة قُربها والاستمتاع بوجودها المُفعم بالبهاء.

لذا حاولت بجهد تناسي تلك الإساءات المُرّة التي تسربت إليّ واجتهدت لابتلاع الإهانة التي فاجأتني، كنتُ أحاول تعويض إحساسي بالنقص بالإسراف في إنفاق الأموال، أنا من لم يكن المال يوماً يعنيه في شيء، كنت أتقصد التبضُّع في المحلات الغالية، وأصرُّ على دفع فواتير الطعام في كل المطاعم والمقاهي التي نرتادها، تعويض لم يكن مُنصفاً لكنه كان مُقنعاً بالنسبة لي إلى حد ما.

أجمل ما كان في تلك الرحلة الحُلم، أننا لم نكن معنيين بأي شي أو شخص ممن رافقونا في تلك الرحلة المُزدحمة بمُسافريها

وقصصهم، عشنا زمناً مُستقطعاً ووفق مواقيت تخصُّنا وحدنا دون سوانا.

كنا نستفيق قبل الجميع نتناول الإفطار في حضرة العصافير وسط الحديقة الأندلسية الغنّاء التي لم نعرف مثلها سابقاً، شطائر الخُبز الساخنة وطبقات الشوكولا التي تنداح فوقها بغواية مُبهجة تُحيلني طفلاً مجنوناً، أقداحُ الشاي والقهوة والبسكويت المغمور بالبوح كلها عوامل أججت حبّاً كنتُ أرى شبحهُ العملاق يطوف في هواء المكان.

وقت الاجتماعات الذي يمرمر الزمن الطويل، لم يمنعنا من أن نختطف حيزاً يقذفُ بنا صوب المُتعة.

في أوقات الغروب الدافئة كنا نحتل ناصية الحُب في مقهى صغير يقف على حدود الحُلم، لأحكي لها بتدفق غريب، أروي لها عن جذوري وقريتي وأبي وجدتي، وأحكي لها عن بيتنا الصغير هُنا وبيتنا الكبير هُناك، عن حقولنا المُمتدة ومحاصيل البُن والعسل والحناء التي لم تغب يوماً عن بيتنا.

في المُقابل كانت تستمع بشوق ولهفة، تستفزها التفاصيل ويُغريها الحديث الموَشَّى، مع نهاية هذه الرحلة بتنا نعرف عن بعضنا الكثير والكثير.

ولاختلاف عوالمنا بعضها عن بعض كانت تنشأ بيننا خلافات تتضح من خلالها أبعاد العلاقة ومدى عُمقها ووضوحها، فهي القادمة من عالم فخم أنيق لا يليق إلا بأمثالها، لا تحبُّ إلا المطاعم الفخمة التي تُنبئ عن نظافتها بوضوح، وتخافُ المطاعم المُندسة في الزوايا

المُعتمة، وتكره تلك الأماكن التي تطوف القطط في أرجائها براحة تُزعجها، صراخها الطفولي الأهوج وفزعها كانا يُحرجانني ويُثيران المُشكلات التي لا تنتهي بيننا.

كانت تحتسي الشاي الأخضر المُطعم بالنعناع في كؤوسه الصغيرة الموشاة بألف لون ونقش، تُحب اختبار الجديد والمُختلف، تتذوق أطباق الطاجين التي تأتي في وسط الأواني الفخارية اللامعة، ترفعُ الأغطية الثقيلة بلهفة طفلة تنفضُ الورق المُلون عن هدية تتلقاها، تستمتع بهوى فادح بنكهة الكسكسي الذي لا نعرفهُ في بلادنا، هي هكذا دوماً عاشقة للمُغاير وطارقة لأبواب المجهول بلا خوفٍ ولا رهبة، بينما أنا هو ذاك الذي كان وسيبقى في أحضان المألوف الراغب في السكون وسط عوالم الاعتياد التي يعرفها الجميع، أبحثُ بسعي مُجد عن أطباق الأرز الأبيض الموشى بقطع اللحم المشوي الذي لم تعرف ذائقتي القروية سواه، أكتفي بشايي الأحمر القاتم الممزوج بالحليب الحلو الثقيل، هكذا أحبه، لا أجد مُتعة سوى في الشاي المُثقل بالحليب والسكر؛ لعلّي كنت عبر هذا الشراب الدافئ أحاول أن أبعث في دنياي شيئاً من الحلاوة الغائبة عن مفاصلها، ولا أتقن اختبار القهوة التي لا أستسيغ طعمها ولا تدوّخني رائحتها، في حين أن ليلى والقهوة صديقان مُقربان لا ينفصلان.

كنا نقوم بتلك السرقات الجميلة في وقت مُقتطع من الجميع، نجول في طرقات هادئة تخلو من المارة، لتدسَّ ليلى رأسها في كتفي ويعلو وجهها خوفٌ طفولي أصفر، تنهاني:

- عمر، إن مُدناً كهذه باعثة على الخوف، ليست كالمُدن التي اعتدنا تظلل سمائها.

أما أنا فكنتُ لا أخاف، ليس لشجاعة أملكها وما أبعدها عني حين يتعلق الأمر بليلى، إنما لأنني كنتُ أستعين بها على كل خوف وكل فزع وكل ما يعمي الحواس والأمزجة، أقول لها:

- لا تخافي من شيء.. ما دمت معي.. لن يضرك شيء..

كانت تبتسم ولكنها تبقى مُمسكة بيد خوفها الذي يتشبث بثيابها وتسكب عليَّ إلحاحها الدبق لتتركه ينسدل على رأسي كل دقيقة.

على ساحل الوله

مارس 2012 – بلد في أقصى غرب شمال أفريقيا

ساحل البحر الأبيض المتوسط

قصة من هذا النوع لا بد أن يكون البحر شريكاً رئيسياً فيها، هذا البحر العنصر الطارئ على ذاكرة القروي الذي لم يكن البحر يوماً جزءاً من عالمه المُعلق بين الجبال، هذا الازرق البعيد الذي تعشقه ليلى وتتغنى فيه بِوَلهٍ غامض، بينما أعرفه أنا مساحة اللعب وذاكرة الأسرة المُفتتة، لذا أردت أن أهديها ذاكرته، أردت أن يصبح بلونه وروائحه وتفاصيله شريكاً في تلك القصة التي بدأت فصولها تنكتب وتنسكب.

أصررت على القيام بهذه الرحلة صوب المنطقة البعيدة نسبياً، ساعة ونصف قطعناها بالسيارة الصغيرة التي استأجرتها، مُروراً بمسافات شاسعة راوحت بين أخضر مُنبسط وأصفر مُتناثر، هضاب تُرابية مكومة بعضها فوق بعض، طريقٌ طويلٌ مُمتد موشى بأحاديث وحوارات مربوطة بخيط حُب موصول لا ينقطع، وصولاً إلى ذلك الساحل المُنسكب برماله الناعمة.

كان صوت أيوب طارش ثالثنا:

صوت قلبي يغني لي اسمعين صوت قلبي
والمغاني الملاح يأتين من أجل حبي
والحبيب تحت ضوء الحسن منصت بجنبي
سحر عينيه وا صبايا قد غلب ألف ساحر
ياقمر يا نجوم ياشمس بالله غيبي
لفلفي ضوءك من الدنيا ويكفي حبيبي
ليت كل القلوب ياناس كانت قلوبي
ربما يوسعين حبي فهو بحر زاخر

ليلى التي أحبّت صوت طارش كما أحببته، لم تُرد بدايةً خوض المُغامرة كما أسمتها، كانت ترى في طياتها أشباح مخاوف وخيالات لرجال مجانين يثيرون الرُعب والهلع، لكنني كنتُ مُصراً على أن نكون طرفي هذه المُغامرة وأن يحلَّ البحر ثالثنا ويكون شاهداً على ما هو في طور التَّخلّق، وحسناً فعلت إذ أشركتُ البحر في هذه المُغامرة المجنونة التي ما كان لها أن تكون لولا استجابتي لذلك الهوى الذي طاف من حول قلبي في ذلك الصباح الأطلسي.

خذني معك
ويا حبيبي شأتبعك
خذ من عيوني ما تشاء
شأفديك بروحي يا رشا
كيف شأفرقك وأنت الذي

ساكن بقلبي في الحشاء
خذني معك
خذني معك
وايا حبيبي شأتبعك
ولعت قلبي في الهوى
وأضنيتني في ذا الجوى
هالك بحبك ما علي
ظاميء حبيبك ما أرتوى
خذني معك
خذني معك
وايا حبيبي شأتبعك
إسقيني من كأسك حنان
وإزرع بأيامي الأمان
يا من بقربك أحتمي
وأسعد بأحلى.....
خذني معك

لم نكن عابئين بالمياه التي لوَّثت ثيابنا وأصابعنا، قطعنا ذلك الساحل المجنون وأنا أروي لها ذكرياتي مع المياه ومع البحر في وطني الذي أعرفه ويُنكرني ومع رحلات الصيد في سفوح الجبال الخُضر التي تنتصب حول بيوتنا القروية الصغيرة المُتلاصقة التي ما عرفتها ليلى مثلي، كنتُ أتحدث فتتلقف هي الحكاية باستمتاع وابتسامات آسرة يذوب لها القلب.

خذني معك
وا يا حبيبي شأتبعك
ورد الصباح في مقدمك
أسفر بنوره مبسمك
ضوى وصبح بالرضاء
أين تروح الله معك
خذني معك
خذني معك
وايا حبيبي شأتبعك

في هذه الرحلة تناولنا الغداء في مواجهة الأزرق المُنداح بغواية، وفي نهايتها كُنا مطمورين بالتراب وغارقين حتى الساق بذرات رمال ناعمة، حينها انحنيت على قدميها أزيح التراب الناعم العالق بحذائها وثيابها، كانت تلك أكثر لحظات حياتي عزةً وفخراً وأنا أنحني على قدمَي تلك الأنثى وأنتمي إليها وأقترب منها حدود الروعة، كانت تلك تجربة تأبى أن تُمحى أو تزول حتى وإن مرت الأعوام والأيام وطوى صفحتها الزمن.

أبوابٌ موصدة

مايو 2014

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

الزمن الذي يمضي سريعاً ويطوي معه حُلم الحصول على تلك الورقة الذهبية التي تأبى الحياة أن تهبني إياها، كان له وقعٌ وإيقاعٌ مُغاير في تلك الفترة، وقعٌ جعلني قادراً على التأقلم مع ما يحدث دونما رفض أو استنكار، فقد اعتدت الإجراءات الروتينية مهما طالت أو تعقدت أو حتى استعصت، فالأهم بالنسبة لي حينها هو الإحساس الغامر بالأمن، إحساس بلا مبرر ولا منطق مفهوم، فلم يعد الحصول على صك الانتماء قضية كبرى ولا مُعضلة كما كان سابقاً؛ تراجع هذا الحلم لصالح الواقع الذي أحياه.

تميُّزي المهني في عالمي الوظيفي الضيق، فتح أمامي فرصة الانتقال إلى مؤسسة أخرى، نافذة كُبرى أشرعها أحد أساتذتي في الجامعة عندما أبدى إعجابه بمستواي المهني المُتميز، فأشفق عليَّ من وضعي الوظيفي المتواضع ودخلي الأقل تواضعاً والذي أحصل عليه نظير ساعات العمل الطويلة في بلد يُعد الأعلى دخلاً على مستوى العالم، تلك الفرصة الفاتنة التي منحها لي أستاذ خالد كانت

تجربة أعادت لي إحساسي المُتميز بذاتي، وبقيمتي التي كدت أنساها في ظل كل ما كان يمرُ بي، هذه التطورات وما رافقها استطاعت أن تمحو ما يذكرني دوماً بأنني كائنٌ طارئ، وفردٌ غير مرغوب فيه، فردٌ عليه أن يكون دوماً على أهبة الرحيل تاركاً الفرصة لمن هم أحق بفرص العمل والحياة.

أهمية هذه الفرصة لم تقف عند حدود إحساسي المعنوي المُفعم بالرضا كونها تُحقق وضعاً اجتماعياً ومادياً متفوقاً، إنما تجاوزته لتُشكل خطوة كُبرى نحو ليلى، فكل تقدم وعلو يُحقق قُرباً مُرتجى من ليلى.

لذا كانت ليلى أول من حملتُ إليه بُشرى الانتقال إلى هذه الوظيفة الحُلم، نقلتُ إليها الخبر وفي صوتي يحتشد الحُب والفرح، فجاء مُنعكساً في طيات صوتها.

- عالبركة حبيبي تستاهل.. كان عندي إحساس إنه راح اتييك فرصة من هالنوع، هذا حقك الطبيعي.

حينها كان قُربنا يزداد اتساعاً وحضوراً، أدمنتُ أحاديثنا المُنسكبة في قلب الليل الصحراوي الهادئ، أحاديث باتت تُشكلُ لي طقساً مُهمّاً أحتاج إليه، تلك المُكالمات التي تشتبك مع لقاءاتنا الصغيرة المُختطفة من عُمر الزمن والحياة أنفاس وجود ومُتعة خضراء.

التصاقي بليلى واقترابي من دُنياها التي للغرابة تبدو مسورة بكل أشكال الانعزال المُستهدفة، كانت مُتعة ألبست الكون من حولي حلة زهرية من بهاء ومُتع.

بيتنا هو الآخر تأثر بدخلي الذي ارتفع، اشتريتُ أثاثاً جديداً لغرفة الجلوس الصغيرة، أهديت والدتي قطعة ذهبية صغيرة ألبستها إياها وأنا أشعر بمقدار مهول من الفرح والفخر، هي من لم يهدِها أبي سوى كدرٍ وأسى، اشتريت هدايا لإخوتي وأبناء أختي، كانت وظيفتي حدثاً على مستوى العائلة، وبالطبع لم تكن ليلى غائبة عن كل ذلك الفرح.

كنت أقتطعُ جُزءاً من راتبي الجديد لمُساعدة أهلي وأقربائي في القرية، وفي كل مرة أقوم بالتحويل فيها أكون في قمة سعادتي، أفكر في الفارق الذي يمكن أن تُحدثه هذه النقود في عوالمهم هناك، خصوصاً وأن الأرض لم تعد كما كانت؛ فقد باتت تشح بمحاصيلها على أصحابها، كما النقود تماماً التي فقدت قدراً كبيراً من قيمتها الشرائية، الأمر الذي دفع بأخي للاستغناء عن محله الصغير ليشتري بدلاً منه شاحنة كبيرة ينقل من خلالها المحاصيل المُختلفة، بعدما فشلت مُحاولاتنا العديدة في توفير فُرصة عمل لائقة له هُنا.

رفقة ذاك كله كان الكون المُتسع والحب الملون وشوق إلى ليلى يزدادُ تعاظماً وسعة، كل ذلك دفعني لأن أُحدثها في أمر ما ظننتُ أني قادر يوماً على البوح به، أو لنقل إنصافاً لم أكن لأبيح لنفسي إمكانية التفكير فيه، قلت لها ذات تهور:

- ليلى.. تتزوجيني؟

شهقتها المُختنقة، الصمت الذي اعتلى شفتيها المُنطلقة في كل اتجاهات البوح أوصلت لي رسالة الصدمة التي تجاوزت أعتاب

سمعي لتتشكل غيمة حيرة سوداء فوق رأسي، ليتني ما تجاوزت منطق المُتاح، ليت غبائي وتهوري ما غلباني لأن أبوح لها به..

بعد دهر ونيف جاءني الرد:

- أكيد... أنا أتمنى هاليوم...

تلك كانت إشارة حياة أخيرة جاءتني بعدما أوشكت أن تسلبني الحياة ما تبقّى في جسدي من مُمكنات بقاء، شكراً للدنيا.

على أعتاب وطن

يوليو 2014

سفارة دولة خليجية

في مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

أدركت أن الانتظار البائس الذي يلبسني لن يُجدي نفعاً، فمحاولات الصبر على واقع يتمدد ويزداد توغلاً لم تكن حلاً مُجدياً، وأنه لا بد من التحرك صوب فعل ضروري، لذا قررت أن أتخذ موقفاً لا بد له أن يجيء.

في المدخل المؤدي إلى قسم إصدار التأشيرات المُزدحم بالكثيرين، أعطيت الموظف المسؤول جواز السفر بيد مرتعشة وصوت مشروخ، ليعيده لي بعد دقائق، قائلاً:

– للحصول على التأشيرة عليك أن تحصل على دعوة من قريب من الدرجة الأولى مُقيم هناك.

أشرت إلى صفتي التي تزين صدر الجواز والتي كانت بمثابة طوق نجاة لي في كثير من المحطات، قلت له:

– أنا مدير تنفيذي. . .

- وإن كان.. فلا بد من دعوة كما أخبرتك.

- لكني حصلت على فيزا لزيارة إسبانيا والنمسا مؤخراً ولم أواجه مُشكلة.

- الأمور في تلك الدول مُختلفة عنها عندنا.

قال تلك الكلمات والتفت يُحادث شخصاً بجانبه، وكأنه يضع حداً للنقاش معي، حينها استحضرت ما حدث معي وأنا في مكتب تسجيل البعثات في الجامعة حينما جاءني ذلك الرد البارد المُخيب، السيناريو ذاته يتكرر بتفاصيل أخرى أراها تتبدى جلية واضحة.

لم أجد بُداً من انتزاع خيبتي المطوية في صفحات وثيقتي بغلافها الأسود الثقيل الذي كان يقبض عليه الرجل بأصابع من قسوة لأرحل، كانت تلك المُحاولة الأولى التي قررت خوضها لزيارة وطن ليلى لألتقي هناك بأهلها وأخطبها رسمياً منهم، خطوة وعدتها بها وأردت أن أفي بها، أردت من خلالها أن أثبت لليلاي أنني رجل يحترم الوعود ويحرص على أن يبرّ بها إن استطاع، وها أنا في أولى التجارب الحقيقية أخفق وعند أول المنعطفات أقع.

لم أُخبر ليلى بما حدث معي في سفارة بلدها فحتماً لن أطلب منها أن تُرسل لي دعوة حتى أزور بلدها، لن أتسول هذه الزيارة التي يجب أن تأتي وأنا بكامل الشموخ والعزة، تأتي لتفخر ليلى بها وبي أنا أيضاً، كل ما فعلته هو محاولة القفز على التجربة وتناسيها مع البحث عن بدائل كشأني دائماً مع ما يحل بي.

دهشةُ أمي

سبتمبر 2014

مطار حديث في مدينة خليجية

في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

حبيت حبيت حبيت
ماشى حلمت أو ترائيت
ولا تمنيت ياليت
حبيت ياناس حبيت
وانا مع الحب في بيت
ما أحلى حبيبي وسط داري يحوم
كأن عندي كل ضوء النجوم
والنهر والزهر وقطر الندى
ورونق الشمسِ وظل الغيوم

هي المُغايرة في ثياب أنثى، هي الاختلاف الأصيل الذي يُبهرك بكل لحظه، ويُفاجئك من حيثُ لا تحتسب، هو الاشتعال المتوالي

والمُنبعث من نفسه والعائد إليها، ذاك الذي يملكُ وحده دون سواه مُبررات استعاره وخبوه، اعتدت أن يهديني حضورها جديداً في كل مرة، وأن تلتبس بعبق افتتاني المجنون بها، هذا السحر الذي يخصها وحدها والذي لا يُشبهه شيء، أراها من بعيد تأتيني بثيابها الغالية وحقائبها الكبيرة الملونة وبشعرها الأشقر المرفوع الذي يُسرب شموساً وأحاديث حائرة، هكذا هي ليلى أنيقة حدود البهاء، في كل مرة أصافحها فيها ترن الحُلي في يديها عاكسةً بريقاً مجنوناً في عينيّ وأذنيّ، زيارة سادسة أو سابعة إلى هنا من جديد يأتي بها العمل، ذاك الذي بتُّ أشعر نحوه بالكثير من الامتنان، إذ جاء بها إليَّ أول الأمر وهو من يواصل إطلاق عبيرها في عالمي المُغلق عليها في كل مرة، هي كذلك تشعر نحوه بالكثير من الحُب والقُرب، لأنه يمنحها بطاقة انعتاق من واقعها المُزدحم بقصص إخوتها الذين يرون أن أباهم منح تلك الفتاة مساحة حرية شاسعة لا تصلح ولا تصح في هذا المجتمع؛ فكثيراً ما فاجأني هاتفها في نهارات العمل المُنشغلة لتقول لي بصوت يغشاه حزن رمادي أسيل:

- لم أعد أطيق تصرفات إخوتي.. لولا وجود أبي لغدت الحياة سجناً.

- لماذا؟ ماذا حدث؟

- أنا أشعر بالانهيار والضغط يكاد يقتلني.. أنقذني أرجوك..

تلك إحدى اللحظات التي يتعاظم فيها عجزي وتطوِّقني فيها خيبتي، كنت أتمنى لو استطعت أن أقول لها:

- لنتزوج.. تعالي عندي لستِ بحاجة لأحد وأنتِ معي.. بيتنا الصغير يكفينا ويكفي جيشاً صغيراً من أطفالي منكِ.

لكني للأسف لم أستطع قول شيء كهذا، فليس المال أو البيت هو السبب أو العائق الذي يمنعني من قُرب ليلى، فأنا ما زلت أقع خارج دائرة الارتباط لأنني بعيدٌ عن دنياها وعالمها المُختار الذي لا يسع الجميع، وبالطبع لن يسعني وأنا العاجز عن القيام بأبسط الأشياء كأن أزور بلدها لخطبتها كما يليق بالنساء أن يُخطبن.

تأتي اليوم لتحط رحالها في وطني المُستعار، قبل قدومها البهي أستعد بكل أشكال الاستعداد كمن هو على أهبة حدثٍ كبير مُهم، كنتُ أشعر أن النهارات تكتسي بلون زاهٍ مُختلف وأن الحياة لها طعم مُغاير، تغيّر استشعره جميع من حولي.

على الطرف الآخر من عالمي كانت أمي وأختي جواهر شقيقة روحي التي تعرفني جيداً وتقرأني بسهولة لا يجيدها الكثيرون، في تلك الاثناء كانت تستعد لعقد قرانها على قريبنا البعيد الذي يكبرها بأعوام والذي أراد أن تكون أمّاً بديلة لأبنائه الخمسة بعدما توفيت زوجته الأولى، كنت أقف وبقوة ضد إتمام هذا المخطط اللاإنساني، كنت أرى أن جواهر لا تستحق زوجاً مثله، إنها ألطف وأرق من أن تحتمل هذا الكم الكبير من المسؤوليات والآلام، لكنني كالعادة كنت طرفاً لا يعتدّ به في تلك الصراعات الكبرى، لا رأيي ولا حتى محاولاتي أثمرت شيئاً، لذا تم كل شيء كما رسموه وأرادوه بمباركة الجميع ودعمهم.

لذا قررت التنحي، آثرت الابتعاد، لجأت إلى حيث تكون ليلاي، قُبيل قدومها المُنتظر كُنتُ أرسمُ خططاً مُلونة للّقاءات التي تُختطف من زمن العمل والتزاماته الخانقة، أرسم في رأسي خارطة بأسماء أماكن ومَقاهٍ ومَطاعم سنزورها سوياً، ولا أزورها إلا معها، فوطني يكتسب بحضور ليلى طعماً ونكهة أخرى.

موعدي معها هذا المساء كان في مطعم افتُتح حديثاً قيل لي إنه وجهة الصفوة واختيارهم الأثير منذ افتتح، جلسنا في زاوية عائلية مُغلقة، ستارة مخملية حمراء تهدلت على بابها منحتنا خصوصية اعتدت أن أحظى بها معها.

ضحكتها الآسرة، حركاتها اللاإرادية وهي تدس خصلة شعرها الأشقر تحت الحجاب الأسود الذي أُجبرها على ارتدائه بصحبتي، العباءة التي تتعثر بها، غطاء الوجه الذي تُسدله عنوه ليخفي عينيها، لتقول لي حينها بصوتها المبحوح:

- هذا الغطاء يخنقني لا أستطيع التنفس..

أقول لها بابتسامة:

- إن تزوجنا ستكونين مُجبرة على إسداله دوماً...

- لنتزوج أولاً ثم نرى ما سيحدث لاحقاً...

يخنقني ردُّها الحلو المغموس بذكاء أنثى تتفتح حباً وسعادة، في أثناء تلك الزيارات كُنا نُفكر ونُخطط ونرسم معالم ذلك المُستقبل الملون.

بعيداً عن خطط وأحلام تسكن رأسي وعقلي وقلب ليلى، كنت أشرع في خطوات حقيقية؛ ففعلاً بدأت بتشييد غرفتين صغيرتين بملحقاتهما الأساسية في زاوية الفناء الأمامي لمنزلنا بعدما أزلت الأقفاص الحديدية التي خلت منذ زمن طويل لتتحول إلى زاوية لتكديس الخردوات التي يحترف سالم العاطف جمعها بلا هدف سوى عدم رغبته بإهدارها، هذا البناء أثار استياء والدي في البداية فرأى فيه نفقات بلا هدف ولا طائل ولا أية أهمية، إلى أن أخبرته أن هذا البناء هو تنفيذ لما يطلبه مني دوماً تحقيقاً لحلم الزواج والارتباط..

- غرفتك موجودة بس نصبغها ونغير الأثاث وأمورك طيبة ليش الخسارير والتكاليف؟

سنوات الغربة أوغلت في روح أبي بخلاً وشحاً يخنقنا ويتجلى في كل الأشياء ومع كل البشر.

- لا يبا غرفتي ما تكفي صغيرة وضيجة.. وما فيها خصوصية.

لم أستطع إخباره أن زوجتي المُستقبلية لن تقبل السكن في غرفة صغيرة محشورة في بناء متواضع من طابق واحد، هي من تعيش في منزل كبير من ثلاثة أدوار في ضاحية فخمة تشغل وسط العاصمة الصغيرة، أتذكر زميلاً يقاربني غربة ويشاطرني انتظارات طالت به في وطن ليلى، يفقد حتى هوية تخصه، حط به الرحال هنا في وطن يرتجيه هو وأسرقه أنا من الآخرين لنصبح بعد وقت قصير شركاء

ذاكرة وأقرباء وطن منتظر، سألته مرة عن منطقتها، كنت حينها أبحث عن كل ما يخصها، عبره وجدت بوابتي إلى ليلى، أنا من يتوق شوقاً لاكتشاف عالمها والتعرف على تفاصيله، ليزمّ شفتيه قائلاً:

- تلك منطقة راقية جداً لا يسكنها إلا أبناء النخبة.

رده المُخيب زادني يقيناً أن ما يفصل بيننا يستدعي جهداً ووقتاً طويلاً لتجاوزه، كيف سأخبر أبي أنني أخطط للارتباط بواحدة بعيدة تنتمي إلى دُنيا حَذرني دوماً من تجاوز حدودها، وهو من يعدُّ العُدة لتزويجي بسارة ابنة جارنا سعد صديقه المُقرب، ابنة الثمانية عشر ربيعا التي تسدل غطاءها الأسود من رأسها إلى قدميها، كيف سأقول له أنني لا أريدها، وأنني أريد ليلى زوجة لي! تلك كانت معضلة أخرى كمعضلة الهوية والوطن والجواز السحري.

في زيارة سابقة إلى وطني أصررت على أن أصحبها من المطار، قالت لي:

- لا داعي سآخذ السيارة المخصصة لي من الوزارة.

- لا سأصحبك بنفسي.

أردت أن أكون أول من تراه من بلادي المزورة إذا حطت بها الرحال، قلت لها وهي تجاورني في مقعد المركبة وصوت طارش يشاطرنا الحضور:

- إذا شاهدتك أم سيف وانتي ترتدين هذه الثياب.. ستضرب صدرها بفزع.. هذه زوجتك يا عمر!.. وافضيحتاه

تضحك وتقول:

- ستدهش أكثر إن علمت أن زوجتك تعمل بين الرجال وتسافر بمفردها...

نعم ليلى كانت نموذجاً مغايراً لجواهر ونساء أسرتي وقريتي اللواتي كثيراً ما يكنَّ مغلوبات على أمرهن يقعن تحت طائل الاضطرار والإرغام، في كل ما يحدث معهن وبهن.

رغم كل ذلك كنت أرى ليلى أنثى تنزع صوب التقليدية وتنتمي إلى ماض اندثر لم يعد له وجود سوى في المخيلة وفي متون الكتب.

كانت هي تتصرف بمقدار كبير من الحب والتمرد والذكاء فيما تناضل جواهر حتى تدخل إلى أحد المعاهد لاستكمال دراساتها في الإدارة والسكرتارية، فيما أبي يرفض وبشدة تبعيتها لذلك الحلم.

هي كذلك فعلاً، نموذج فريد، أنثى مُنفتحة على الثقافات والعوالم الأخرى ربيبة مجتمع عرف الحضارة باكراً، ورغم كل ذلك لها آراء وأفكار تذهلني من فرط ارتباطها بالماضي، مزيج غريب يصعب تفسيره أو مقاربته مهما اجتهدت أو حاولت، نموذج يوقعك في مأزق حبه والتوجس منه، هكذا كنت دوماً معها؛ أتقلب بين حبها وبين الخوف من حضورها، وليتني أنقذت نفسي باكراً.

مشروع حُب مؤجل

نوفمبر 2015

باريس – فرنسا

الحُب عن بُعد، الحب على مسافة من الوطن هو ما احتجنا إلى اختباره هذه المرة، كان علينا أن نبتعد عن مركز الألم المُضني، وأن نوجد لنا نقطة ارتكاز صلبة في هذا الوجود الإنساني الرجراج الذي يُحيط بنا، وذلك ما فعلناه واجتهدنا لتحقيقه، في هذا العام جمعتنا رحلة العمل في عاصمة النور، باريس التي كنا نزورها كلانا للمرة الأولى، كانت رحلة على قدر من الروعة والجمال يصعُب معه وصفها أو حتى فهم مُفرداتها، في فترات الفراغ بين مطبات العمل وانشغالاته كُنا نسير سوياً تحت المطر الشتوي في ليل باريس الحاني، نستمع للأنغام التي يعزفها المُشردون في شوارع باريس، تُضحكنا حكاياتنا الصغيرة، كنا نعيد اكتشاف ذواتنا المُتخفية في الثياب والأرواح.

في هذه الرحلة زرنا ديزني لاند سوياً، أردت اختبار الحياة بكل تفاصيلها، ربما لأنني كنت أشعر لاواعياً أنني أودعها وأودع الحكاية الجميلة التي لم تكتمل أبداً، لعبنا كل الألعاب، الصغيرة والكبيرة،

التقطنا الكثير من الصور، ارتديت أذن ميكي وارتدت هي قبعة ميني بوردتها الزهرية العملاقة، طفنا بالأرجاء وأنا أحدق بعيونها المُتقدة بهجة وذكاء.

معاً وقفنا أمام برج إيفل ليكون شاهداً أخيراً على قصة تكاد تحتضر، متحف اللوفر الشاسع بلوحاته وتماثيله وممراته المتداخلة كانت هي الأخرى شاهداً على حلاوة الحكاية، تجولنا في كل الأماكن وأمام كل الناس دون أن نخشى شيئاً أو أحداً، وابتساماتنا تشع في الفضاء.

كانت تلك الرحلة بكل ما فيها تليق بأن تكون لقاءً أخيراً يجمعني بها، شعرت أنني خلال ذلك الأسبوع المجنون عرفت عن ليلى واقتربت منها إلى حد مفزع، حدٌّ لم يواجهه منطق مقبول من قبل، حدّ يُنبئ عن تلك النهاية المُرة التي كانت تتربص بنا في الأفق.

سنمضي

فبراير 2016

مدينة خليجية في شرق شبه الجزيرة العربية

هي الحياة بكل ما فيها، بوجهها المُحزن المؤرق الذي يطل علينا، والذي يُجبرنا على التعامل معه، أعي تماماً أننا معرضون أبداً لتلك الانكسارات التي تهشم الأمل الضعيف في دواخلنا، وأنه علينا أن نتحسب لما هو قادمٌ أبداً، إلا أنني كنت في هذه المرة أنا أحد معاول المباغته البائسة التي هوت على مشاعرها فحطمتها، لا أعرف كيف استطعت أن أقسو عليها إلى هذا الحد، ولا أدري كيف واتتني كل تلك الشجاعة لأن أفعل ما فعلت، كم كنت شجاعاً أخرق ظنّ نفسه بطلاً حقيقياً وإذ به شخصية من ورق وهُلام، ما أعرفه جيداً أننا انكسرنا، أننا كُنا واحداً فانكسرنا.

وما أعرفه أن ليلى لم تكن الوحيدة التي كُسرت وعانت وأتعبها الأمر، فأنا أيضا لم أكن في مأمن تلك الشظايا الكبيرة التي اخترقت روحي وتسللت عبر مساحات جسدي الضئيل، لعلي كنتُ أسوأ حالاً، صوتي المُختلج الذي انتقل إليها البارحة، وأنا أقول برجفة لم تختبرها لغتي سابقاً:

- تزوجي يا ليلى تزوجي.. لا تنتظري مني شيئاً.. فنحن لسنا لبعضنا وقصتنا لن يكتب لها أي نجاح.

صمتها الداهم الذي اجتاح حواسي فجأة، أحالني صوب الشتات والبعثرة، لم أعرف بما أعقّب وكيف أخرج من مأزق الحب العظيم هذا.

كم يسألوني الناس عن أنسي وإيناسي القديم
الناس في وادي وقلبي وسط وديانك يهيم
أمشي بريحاني وألحاني وأسأل عنك أفواج النسيم
وأضم كل الزهر أشمك فيه وأحضن كل ريم

سوف تلقاني على خضر الربا
في المراعي حيث أيام الصبا
حيثما حبي وحبك قد ربا
حيث ألقاها وتلقاني الضبا

وحده أيوب طارش حاضر بصوته وروحه... وحده القادر على التعبير عمّا يجيش في روحي من أسى وألم... كيف أواجه حزني، كيف أواجه الفراق.

أسوأ ما في الأمر أنني أحلت شهر أفراحها إلى حزن مزمن لا يُنسى، فلطالما كان فبراير شهر الأفراح، شهر الأعياد والمسرات، شهر وطنها الجميل، أتذكر كيف انطفأت تلك الشعلة الوهاجة من

جمال وتدفق وحيوية، وكيف استحال صوتها بين ليلة وأخرى إلى بقايا بكاء مُختنق وشهقات تحاول الإعلان عن نفسها.

لم يكن الأمر مُتسقاً مع منطق قلبي، وترجمه لساني لغة فاصلة لا تقبل الجدل، كنت أحاول الاستجابة للواقع مُرغماً، من قال إنني أريد الانفصال! من قال إني أريدها أن تكون لأحد آخر سواي، أو إنني قادر على تخيل حياتي مع امراة أخرى سواها! لكنها الحياة؛ تُرغمنا على سلوك سبل ودروب لاإرادية.

محاولاتي المستمرة المُستعرة طوال الأشهر الماضية، تجربتي في الوصول إلى أهلها، حديثي الخائب مع والدتها، محاولة الوصول إلى والدها، تلك الواسطات المُتعددة من أصدقاء وأقارب، وضعي المادي المُستقر وثرواتي المالية الصغيرة، كلها لم تكن كافية لإقناع أحد، فأنت لا تحمل صك الانتماء الثمين الذي يجب أن يمتلكه الرجال عادة.

كحل أخير ومحاولة مستميتة للحياة اقترحت على ليلى أن نسافر، أن نتزوج في الخارج، في أمريكا أو كندا أو أي بلد بعيد، صوتها المجروح أجابني:

- هل ترضى لي ذلك؟ هل ترضى أن أتزوج بعيداً عن أهلي ودون موافقتهم؟

ردٌّ ألجمني، أدخلني دوامة الحيرة التي ما خرجتُ منها أبداً.

لكن هناك جملة واحدة، جملة واحدة فقط كانت الحاسمة، كانت السبب وراء اتخاذي هذا القرار المجنون المُغامر:

- لو حدثت حرب كالّتي كانت بين بلدك وبلدها... كيف ستعيشون؟ وأبناؤكم في أي البلاد سيكونون؟

تلك الجملة قصمتني، شطرتني إلى نصفين، لذا كان لا بد من أن أمنح ليلى فضاء وحياة بعيداً عني وعن شراك تعلقها المريض بدنياي، هذا الخيار لصالحها هي أولاً وأخيراً.

هكذا انتهت القصة إذاً، شهقتُها، صمتُها، نغمةُ الهاتف الصامتة التي واجهتني، رنيني المُتصل الذي لم يقابله سوى الصمت، كل ذلك أوصل لي رسالة مفادها.. انتهينا، انتهت كل الحكاية كل الأشياء الجميلة كل الأحلام، انهارت البيوت التي سكنّاها سوياً، غادرها أهلها بعدما غدت خرائب لا تصلح سوى للهجران، وكل اللوم على تلك الوثيقة اللعينة؛ ليتها أتت، لكانت الحياة اليوم شيئاً آخر مُختلفاً.

«قلبي يسائلني عليك، أين أنت، أين الحب، هل عادك حبيب؟».

جرفٌ هار

مايو 2016

مدينة في شرق شبه الجزيرة العربية – جنوب غربي آسيا

لا أعلم من هو صاحب الفكرة، أو من هو صاحب المبادرة، قد تكون أمي التي تعرف ولعي الغامض بصوت هذا الرجل، أو هي جواهر التي تجيد تحديد أطوار مزاجي وفق الأغنيات التي أسمعها مبثوثة عبر صوته الأصيل إلا أن ما أعرفه جيداً أنني ما أردت له أن يتجلى هاهنا، ما أردته أن يكون شريكاً في هذا الجرم وأن يكون طرفاً في هذه الكارثة، كنت أسمع أيوب طارش يشدو. . . يصلني صوته صادحاً خارج القاعة الصغيرة:

رشوا عطور الكاذيه
على العروس الغاليه
وعوَّذوها بالنبي
وادعوا لها بالعافيه
صفوا الصفوف دقوا الدفوف
شلوا الزفوف العاليه
زفوا وحفوا للجميل

أحلى ورود الرابيه
يكفي عريسك يا عروس
هذي العيون الساجيه
تسوى وتستاهل إذا
عَدَّ الألوف الوافيه

إنها المفارقات المبكية، وإحدى أقسى اللحظات التي هيجت حزني وأججته، يا لها من ليلة قاسية.

ياليلة العمر الهني
طولي بفرحه هانيه
خلّي العروسه والعريس
فوق النجوم الساريه
وأنت وا قلب العريس
نلت المنى نلت الهنا
من فرحتك أفراحنا
قد أفرحتنا كلنا
اسمع زغاريد القلوب
من الصبايا حولنا
وكل شبَّان القرى
قد شاركونا في الهنا

عرسي الصغير في صالة الأفراح القريبة والمتوارية في آخر حيّنا الذي لم يزُرْه الإسفلت بعد، زواجي الذي جاء كهروب عاجل من

أزمة الانفصال عن ليلى، حلٌّ أردته إسعافياً سريعاً عاجلاً، زوجتي التي لم أرَها سابقاً بثوبها المُنتفخ وبنقوش الحناء التي تتسلق ذراعيها بوضوح مقيت، لطالما كنت أكره الحناء، لم أحب سوى تلك النقوش الصغيرة التي تزين معصم ليلى أو تتدلى من أحد أصابعها، شتان كبير يفصل ما بين المرأتين بنقوشهما، فرق بائن اكتشفته رويداً رويداً وأنا أرسم خارطة حياتي رفقة سارة، هكذا كان اسمها، بطفولتها الواهنة وشخصيتها البسيطة المُتناثرة في الفضاء مشاريع وجود، فرق يستحيل تفاصيل تغرز دبابيس من تذكّر في رأسي وجسدي.

فقط هما الحاجبان الغليظان المبعثران اللذان كانا كل ما أكرهه في ليلى، وأصرت على تركهما بهذا الشكل في كل اتجاهات التبعثر من دون محاولة تهذيبهما، كنت أراهما يشوّهان جمال عينيها الواسعتين، هذان اللذان امتلكت سارة مثلهما، ما يفرق بينهما اللون فقط؛ فعند سارة هما أسودان بلون لا يقبل الحياد، بينما هما عند ليلى يتدرج اشقرارهما الآسر عند ليلى مع تدرج لون شعرها، هذان اللذان كنت أكره أصبحا اليوم صلتي بليلى، خيط شوقي الوثيق الذي يشدني صوبها، كلما ارتخت ذاكرتي.

جيشٌ من الإخوة والأخوات ينتمي إلى عروسي الجديدة، عائلة كبرى بالتزامات ومناسبات لا تنتهي، أختها الكبرى التي اقترن بها قبل زواجنا بأشهر عريس بشهادة متواضعة ووظيفة مميزة، لكنه المتفوق بفضل المواطنة بينما أنا المقيم الذي جاء ليقترن بأختها، «ميم» المواطن والمقيم التي تجمعنا لتفرقنا تلك الوثيقة البائسة، لذا أردت أن يكون شهر العسل ما بين باريس وسويسرا، تحديداً في

باريس وجنيف وإنترلاكن، أردت أن أثبت للجميع أنه لا فرق بيننا، وإن لم أمتلك تلك الوثيقة الذهبية المُشتهاة، فلا فرق؛ أنا ما زلت قادراً على أن أكون هناك وهنا، وأفعل مثلما يفعل المواطنون في وطني المسروق.

باريس، الشاهد الأخير على ما كان بيننا ذات يوم، استحالت جهنم يتربص بي في كل المفارق والدروب. عند برج إيفل وقفت على مسافة صحبة عروسي التي لا أعرفها، لم أطِق الاقتراب منه ولم ألتقط صوراً متعددة من زوايا كثيرة كما فعلت برفقة ليلى، كانت باريس تجلدني، تخنقني رغم شوارعها الواسعة، تقاصصني على وجودي في حضرة أنثى أخرى غير ليلى.

الجزء المستحدث من بيتنا الذي أردته ملاذاً لليلى تحوَّل بين ليلة وضحاها إلى بيت يجمعني بزوجة أخرى لا أعرفها، جواهر وبعد زواجها أصبحت ضيفة شبه دائمة في بيتنا الصغير، خلافاتها مع زوجها المزعج الذي ما أحببته أبداً، طفلاها التوأم راشد وريم بضجيجهما الذي لا يهدأ، باتوا جميعاً وجوداً دائماً في منزلنا المزدحم بسكانه. بعد عرسي بعدة أشهر توفيت جدتي صالحة، أبي وحده من ذهب إلى القرية لوداعها أما نحن فقد بقينا في الوطن، تلقينا العزاء في مجلس منزلنا، لا أدري بما أصف ما أحس به نحو وفاتها التي ما أشعلت في داخلي أي حزن متوقع كنت أعيش حينها حزناً يفوق فراقها حزناً خاصاً يزداد تأصلاً وحضوراً بمرور الوقت والزمن، إلا أن رحيلها كان إيذاناً بانتهاء مرحلة زمنية شاسعة من عمر أبي.

الحياة كما كانت تسير بإيقاع ممل بطيء محزن، ولا شيء في

الأفق يدفعنا لمغالبة ما فيه أو حتى مجرد المحاولة، بينما أنا لم أحاول طرق أبوابها من جديد؛ لم أرد نكْء جراحها، كنت أتابعها من بعيد، أرقب حساباتها في مواقع التواصل الاجتماعي، ألمس تواصلها وما تكتب وما تفعل. أن تراقب اليوم من كان بالأمس حبك المجنون بينما أنت منه الآن على مسافة من وجل، لهو أمر يوغل في صدرك جراحاً يصعُب براؤها.

المحطة الأخيرة...

بواكير فبراير 2017

في إحدى زوايا مطار شاسع على أطراف مدينة خليجية حديثة

أيوب طارش يشدو:

يوم السفر أصبحت أوادع أهلي
وكل واحد منهم قريب لي
بكى الحبيب من ساعته وقال لي
أين تروح يا وحشتي يا خلي

صوته مُنذ هذا الصباح البارد لم يُغادرني، على العكس يبدو طاغياً مُجتاحاً يبعثُ في رأسي حنيناً وأسى لا ينقُصني أبداً، لا أدري إن كان منبع هذا الأسى قلبي المصدوع أم هو عقلي الذي ينخرهُ العطب، أم السر هو في هذا المكان الشاسع الذي يُسرب لي أحاسيس الوحدة، فلطالما كنت أشعر أن للمطارات رائحةً واحدة، عطراً نافذاً مُحدداً لا يتغير بتغير المُدن وتنوع المطارات؛ هو ذاته، محافظ على وجوده بثبات راسخ، هذا العطر الذي أجده اليوم يُحاصرني ويستفزُّ عليَّ أساي.

ها هو القروي الراسخ، يغادر أرضه الثابتة، يرتحل ينتزع جذوره العميقه المتأصله في وطن ينفيه، يسلخ نفسه عنه، ها أنا أحاول التناسي، وأستعينُ بحواسي لأمازج المُحيط وأنسجم مع تفاصيله؛ عَلَّ ذلك يُخرجني من مأزق الحُزن البغيض الذي أجدني متورطاً فيه اليوم، قررت أن أترك وطني لأسافر، استجبت لإلحاح القدر ولمنطق الواقع المهيمن عليَّ بالرحيل، احاول نفي الحزن الذي يسكنني بمتابعة خطوات الغادين والرائحين، يُدوي في رأسي دبيبُ أقدامهم المُثابرة مُخلفاً في الجو ذرات من حزنٍ غير مرئية، لعلّي وحدي من كان قادراً على رؤيتها بوضوح.

كنت أحتسي شاياً مُراً مهما استعنت بعبوات السكر لتحليته وأنا ألمح انتظارات الشوق الملون الواقفة على أعتاب نوافذ عملاقة تُشرف على وجوه الطائرات التي تقف على حافة شيء ما، لا أدري كيف تتغير العوالم وكيف تتبدل الأحوال والمشاعر، كم كنتُ أحبُّ المطارات فيما مضى، كنت أعتبرها معبر الوصول إلى واحةٍ مُرتجاة كتلك التي عرفتها مع ليلاي امرأتي المفقودة، أما اليوم، أو قبل اليوم بقليل بتُّ أتوجسها، أخافها وأتحاشاها ما استطعت، فقد باتت تُخلف في داخلي صدى مُفزعاً لشيء ما يبدو على وشك الحدوث.

من جديد صوت أيوب طارش يجتاحُني:

يوم السفر أصبحت أوادع أهلي
وكل واحد منهم قريب لي
بكى الحبيب من ساعته وقال لي
أين تروح يا وحشتي يا خلي

هذه المرة لم أكن بحاجة إلى صوت حي يشتعل في أذني ليصل لهيبه إلى رأسي، كان هذه المرة حضوراً بلا مقدمات حية محرضة، هذا الصوت القديم ينجحُ في استدراج الصور إلى رأسي، صور لا أحتاج إليها اليوم وهنا تحديداً، أعود إلى مكاني، أتحسس الحقيبة السوداء القريبة من قدمي، أتأكد من ثباتها كي لا تسقُط فتُحدث دوياً يرجُّ رأسي والمكان، أعود إلى الحقيبة الأخرى المُعلقة بكتفي، أدسُّ يدي في جيوبها الضيقة، أتاكد من أنني لم أنسَ وثائقي السوداء في نُقطة ما داخل هذا المطار الكبير المُربك،

- جم بقى على الرحلة؟

يأتيني صوتها مُتخماً بالوهن مزكوم باحتمالات بُكاء.

- حوالي نص ساعة.

هي الأخرى لا تبدو سعيدة بهذه الرحلة التي تقودنا صوب فضاء مجهول جديد، ليست رحلة للفرح أو للتسلية كرحلاتنا القصيرة التي قضيناها في ربوع أوروبا الخضراء، رحلتنا المُشتركة اليوم مُغايرة، تنسدل فوقها ستائرُ من وجل أو هي رحلة المضطرين، رحلة من لم يعد يملك خياراً آخر أو فضاء آخر للتبدي.

صفوف الركاب تنتظم خلف الباب الزُجاجي الذي يقود صوب مدخل الطائرات أحاول أن أتمهَل في المسير، حتى تتمكن من اللحاق بي، ارتباكها الواضح، مردفاً بحملها يُثقل مسيرها ويبطئُ خطواتها المُتعثرة.

هاهو صوت طارش يعود:

تشتي تروح وأنا أمسي لحالي
وأبات وحدي ساهر الليالي
يزيد بي شوقي وانشغالي
عليك يا روحي ورأسمالي

من النافذة المُجاورة تماماً أُطلق نظرةً أخيرة على أنوار المركز التجاري، الأضواء الصفراء الباهتة التي أُغادرها للمرة الأخيرة، وقلبي يهفو نحو تلك المدينة الملونة التي لا توفر فُرصة لتُنكر علاقتها بي، كم هي قاسية هذه الأراضي التي تطوي ناسها، وتُجبرهم على وداع المُدن وساكنيها. ها أنا أودع وطني المسروق وحبيبةً لم يترك لي القدر فرصة التقاطها.

ها أنا أحزم حقائب الذاكرة وأرحل، أغادر وطناً لم أُحِبَّ سواه لكنه أَحَبَّ سواي كثيرين، أغادره وفي جوفي تتكور غصة الفراق، لم أرد يوماً مغادرة هذه الأرض، لم أرد الرحيل عنها أبداً، ها أنا أفعل مثل ما فعل أبي ذات يوم حين تشربته شهوة السفر، وسكن في رأسه عشق الارتحال، ألتفت صوب سارة بعينيها الزائغتين وحزنها الوامض المهيب، تُحكم ربط الحزام على خصرها، تدس أصابعها في كتفي، تهبني ابتسامة باهتة:

- بنرجع أكيد... لا تضايق روحك.

يأتيني صوتها المخنوق بكل احتمالات القادم، أربت على يديها، أهديها طمأنينة تمنيت أن تسكن روحي المبعثرة، ترتفع

الطائرة في الهواء، يتحول وطني إلى بقعة صفراء بعيدة، أخيراً أشيح بوجهي صوبها، بدأت تهدأ قليلاً.

تعود بي الذاكرة إلى هناك، إلى ما كان بعيداً عن هنا، إلى تلك المحطات التي غادرها سالم سيف العاطف ليحط هنا في هذا الوطن الصغير، الوطن المزور الذي ما كان لي ولا معي يوماً، الوطن الذي يملكني ويلفظني، غادر هو قبل خمسين عاماً أرضاً يانعة محفوفة بالاحتضان لأغادر أنا اليوم أرضاً جافة تتبرأ مني، راحلاً صوب قارة أخرى تفصلها عنها بحار ومدارات وأزمنة مشرعة على مجهول يتربصني، ليتك لم ترحل يا أبي، ليتك بقيت هناك حيث منزلنا الرابض على رأس ذلك الجبل الشاهق بكبريائه والمختنق بحزنه، ليتك بقيت فتركت لي هناك إمكانيات وجود في وطن يشبهني ولا يتنكر لي أبداً، أرحل لأودع وطناً أحببته وحبيبة خسرتها، إنه الفقد الملتبس، المتكرر دوماً.

«قلبي يسائلني عليك، أين أنت، أين الحب، هل عادك حبيب؟».

ديسمبر 2017

تونس - إسطنبول - الدار البيضاء - أبوظبي

الكويت (قرطبة)

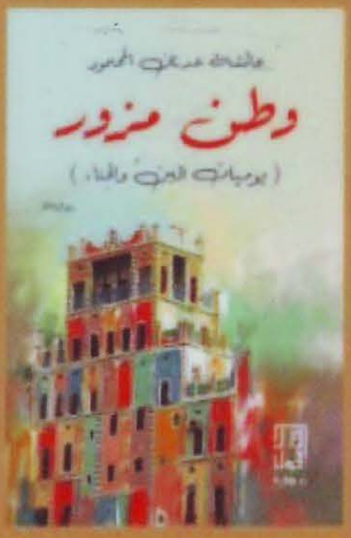

يعبّر هيغو عن الوطن في البؤساء (..وعلّم نفسه أن يستعيض عن أمّه المتوفاة بحنان أمّه التي لا تموت، الوطن).

الوطن ذلك المكان الذي تلقّى مديح الشعراء وقديحهم على حدٍّ سواء، فما هو الوطن ؟ وربما محاولة الإجابة عن سؤال ماهية الوطن وشعرائه تضعنا في مأزق آخر وهو "الهوية" . فإذا كانت الفلسفة تبحث في مفهوم الهوية لتحدّد حقيقة الشيء وصفاته الجوهرية، فإن الإجابة على سؤال ماهية الوطن وهويته، في هذا الأفق، تكون أكثر تعقيدًا مما نظن، لاسيما إذا حاولنا معرفة "هوية" السائل و"هوية" المجيب ! .

وعن هذا كله تلهث هذه الرواية لتحاول الإجابة عن ... هوية وطن، وقبل كل شيء عن هوية الإنسان الذي سكن الوطن . فهل سنجد الإجابة ؟